❀ ❀ ❀

تفسير سورة عبس

وهي مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ① أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ② وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ③ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ④ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ⑤ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ⑥ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ⑦ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ⑧ وَهُوَ يَخْشَىٰ ⑨ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ⑩ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ⑪ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ⑫ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ⑬ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ⑭ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ⑮ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ⑯﴾.

ذكر غيرُ واحد من المفسرين أن رسول الله ﷺ كان يوماً يخاطبُ بعض عظماء قريش، وقد طمع في إسلامه، فبينما هو يخاطبه ويناجيه إذ أقبل ابنُ أم مكتوم ـ وكان ممن أسلم قديماً ـ فجعل يسأل رسول الله ﷺ عن شيء ويلح عليه، وودّ النبي ﷺ أن لو كف ساعته تلك ليتمكن من مخاطبة ذلك الرجل، طمعاً ورغبة في هدايته. وعبس في وجه ابن أم مكتوم وأعرض عنه، وأقبل على الآخر، فأنزل الله ﷻ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ① أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ② وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ③﴾؟ أي: يحصل له زكاة وطهارة في نفسه، ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ④﴾ أي: يحصل له اتعاظ وانزجار عن المحارم، ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ⑤ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ⑥﴾ أي: أما الغني فأنت تتعرض له لعله يهتدي، ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ⑦﴾؟ أي: ما أنت بمطالب به إذا لم يحصل له زكاة. ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ⑧ وَهُوَ يَخْشَىٰ ⑨﴾ أي: يقصدك ويؤمك ليهتدي بما تقول له، ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ⑩﴾ أي: تتشاغل. ومن ها هنا أمر الله ﷻ رسول ﷺ ألا يخص بالإنذار أحداً، بل يساوي فيه بين الشريف والضعيف، والفقير والغني، والسادة والعبيد، والرجال والنساء، والصغار والكبار. ثم الله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة. قال الحافظ أبو يعلى في مسنده: حدثنا محمد ـ هو ابن مهدي ـ حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن قتادة عن أنس في قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ①﴾، جاء ابن أم مكتوم إلى النبي ﷺ وهو يكلم أبي بن خلف، فأعرض عنه، فأنزل الله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ① أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ②﴾، فكان النبي ﷺ بعد ذلك يكرمه. قال قتادة: وأخبرني أنس بن مالك قال: رأيته يوم القادسية وعليه درع ومعه راية سوداء ـ يعني ابن أم مكتوم ـ. وقال أبو يعلى وابن جرير: حدثنا سعيد بن يحيى الأموي، حدثني أبي، عن هشام بن عروة مما

عرضه عليه عن عُرْوَة، عن عائشة قالت: أنزلت ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى إلى رسول الله ﷺ فجعل يقول: أرشدني. قالت: وعند رسول الله ﷺ من عظماء المشركين. قالت: فجعل النبي ﷺ يُعرض عنه ويقبل على الآخر، ويقول: «أترى بما أقول بأساً؟». فيقول: لا. ففي هذا أنزلت: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾.

وقد روى الترمذي هذا الحديث، عن سعيد بن يحيى الأموي، بإسناده، مثله، ثم قال: وقد رواه بعضهم عن هشام بن عروة، عن أبيه قال: أنزلت ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾ في ابن أم مكتوم، ولم يذكر فيه عن عائشة. قلت: كذلك هو في الموطأ. ثم روى ابن جرير وابن أبي حاتم أيضاً من طريق العوفي، عن ابن عباس قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾، قال: بينا رسولُ الله ﷺ يناجي عتبة بن ربيعة، وأبا جهل بن هشام، والعباس بن عبد المطلب ـ وكان يتصدى لهم كثيراً، ويحرص عليهم أن يؤمنوا ـ فأقبل إليه رجل أعمى ـ يقال له عبد الله بن أم مكتوم ـ يمشي وهو يناجيهم، فجعل عبد الله يستقرىء النبي ﷺ آية من القرآن، وقال: يا رسول الله، علمني مما علمك الله. فأعرض عنه رسول الله ﷺ، وعبس في وجهه، وتولى وكَره كلامه، وأقبل على الآخرين، فلما قضى رسولُ الله ﷺ نجواه، وأخذ ينقلب إلى أهله، أمسك الله بعض بصره، ثم خفق برأسه، ثم أنزل الله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤﴾. فلما نزل فيه ما نزل، أكرمه رسول الله ﷺ وكلمه وقال له النبي ﷺ: «ما حاجتك؟ هل تريد من شيء؟» وإذا ذهب من عنده قال: «هل لك حاجة في شيء؟». وذلك لما أنزل الله تعالى: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧﴾. فيه غرابة ونكارة، وقد تُكُلِّم في إسناده.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور الرّمادي، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنا الليث، حدثني يونس، عن ابن شهاب قال: قال سالم بن عبد الله، عن عبد الله بن عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن بلالاً يؤذن بليل، فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم». وهو الأعمى الذي أنزل الله فيه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾، وكان يؤذن مع بلال. قال سالم: وكان رجُلاً ضرير البصر، فلم يك يؤذن حتى يقول له الناس ـ حين ينظرون إلى بزوغ الفجر ـ: أذّن. وهكذا ذكر عروة بن الزبير، ومجاهد، وأبو مالك، وقتادة، والضحاك، وابن زيد، وغير واحد من السلف والخلف: أنها نزلت في ابن أم مكتوم. والمشهور أن اسمه عبد الله، ويقال: عمرو. والله أعلم. وقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١﴾ أي: هذه السورة، أو الوصية بالمساواة بين الناس في إبلاغ العلم من شريفهم ووضيعهم. وقال قتادة والسدي: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١﴾ يعني: القرآن، ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢﴾ أي: فمن شاء ذكر الله في جميع أموره. ويحتمل عود الضمير على الوحي؛ لدلالة الكلام عليه. وقوله: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝١٤﴾ أي: هذه السورة أو العظة، وكلاهما متلازم، بل جميع القرآن: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣﴾ أي: معظمة موقرة ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ أي: عالية القدر، ﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾ أي: من الدنس والزيادة والنقص. وقوله: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥﴾. قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وابن زيد: هي الملائكة. وقال وهب بن منبه: هم أصحاب محمد ﷺ، وقال قتادة: هم القراء. وقال ابن جريج، عن ابن عباس: السفرة بالنبطية: القراء. وقال ابن جرير: الصحيح أن السفرة الملائكة، والسفرة يعني بين الله وبين خلقه، ومنه يقال: السفير: الذي يسعى بين الناس في الصلح والخير، كما قال الشاعر:

وما أدعُ السِّفَارَةَ بين قَومي ... وما أمشي بغِشٍّ إن مشيتُ

وقال البخاري: سفرةٌ: الملائكة. سفرت: أصلحت بينهم. وجعلت الملائكةُ إذا نزلت بوحي الله وتأديته كالسفير الذي يصلح بين القوم. وقوله: ﴿كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾ أي: خُلقهم كريم حسنٌ شريف، وأخلاقهم وأفعالهم بارة طاهرة كاملة. ومن ها هنا ينبغي لحامل القرآن أن يكون في أفعاله وأقواله على السداد والرشاد. قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا هشام، عن قتادة، عن زُرارة بن أوفى، عن سعيد بن هشام، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السّفرة الكرام البَرَرة، والذي يقرؤه وهو عليه شاق له أجران». أخرجه الجماعة من طريق قتادة، به.

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝٢٢ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ۝٢٣ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٢﴾.

يقول تعالى ذاماً لمن أنكر البعث والنشور من بني آدم: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧﴾. قال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾: لعن الإنسان. وكذا قال أبو مالك. وهذا لجنس الإنسان المكذب؛ لكثرة تكذيبه بلا مستند، بل بمجرد الاستبعاد وعدم

العلم. قال ابن جرير: ﴿مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾: ما أشد كفره! وقال ابن جرير: ويحتمل أن يكون المراد: أي شيء جعله كافراً؟ أي: ما حمله على التكذيب بالمعاد. وقال قتادة ـ وقد حكاه البغوي عن مقاتل والكلبي ـ: ﴿مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾: ما ألعنه. ثم بين تعالى له كيف خلقه الله من الشيء الحقير، وأنه قادر على إعادته كما بدأه، فقال: ﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ أي: قدر أجله ورزقه وعمله وشقي أو سعيد. ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾﴾، قال العوفي، عن ابن عباس: ثم يسر عليه خروجه من بطن أمه. وكذا قال عكرمة، والضحاك، وأبو صالح، وقتادة، والسدي، واختاره ابن جرير. وقال مجاهد: هذه كقوله: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ٣] أي: بيّنا له ووضّحناه وسهلنا عليه علمه، وهكذا قال الحسن، وابن زيد. وهذا هو الأرجح، والله أعلم. وقوله: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ﴿٢١﴾﴾ أي: إنه بعد خلقه له ﴿أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ﴾ أي: جعله ذا قبر. والعرب تقول: «قبرتُ الرجل»: إذا ولي ذلك منه، وأقبره الله. وعضبتُ قرن الثور، وأعضبه الله، وبترت ذنب البعير وأبتره الله. وطردت عني فلاناً، وأطرده الله، أي: جعله طريداً، قال الأعشى:

لو أسندت ميتاً إلى نحرها   عاش، ولم ينقل إلى قابر

وقوله: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾ أي: بعثه بعد موته، ومنه يقال: البعث والنشور، ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الروم: ٢٠]، ﴿وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ﴾ [البقرة: ٢٥٩]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أصبغُ بنُ الفرج، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث: أن دراجاً أبا السمح أخبره، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ قال: «يأكل الترابُ كلَّ شيء من الإنسان إلا عجبُ ذنبه». قيل: وما هو يا رسول الله؟ قال: «مثل حبة خردل منه ينشؤون». وهذا الحديث ثابت في الصحيح من رواية الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، بدون هذه الزيادة، ولفظه: «كل ابن آدم يَبْلى إلا عَجْبُ الذَّنَب، منه خلق وفيه يُركَّب». وقوله: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾، قال ابن جرير: يقول: كلا، ليس الأمر كما يقول هذا الإنسان الكافر؛ من أنه قد أدى حق الله عليه في نفسه وماله، ﴿لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ يقول: لم يُؤدِ ما فُرِض عليه من الفرائض لربه ﷻ. ثم روى ـ هو وابن أبي حاتم ـ من طريق ابن أبي نجيح، عن مجاهد قوله: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾ قال: لا يقضي أحد أبداً كل ما افترض عليه. وحكاه البغوي، عن الحسن البصري، بنحو من هذا. ولم أجد للمتقدمين فيه كلاماً سوى هذا. والذي يقع لي في معنى ذلك ـ والله أعلم ـ أن المعنى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾ أي: بعثه، ﴿كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾ أي: لا يفعله الآن حتى تنقضي المدة، ويفرغ القدر من بني آدم ممن كتب تعالى له أن سيُوجدُ منهم، ويخرج إلى الدنيا، وقد أمر به تعالى كوناً وقدراً، فإذا تناهى ذلك عند الله أنشر الله الخلائق وأعادهم كما بدأهم. وقد روى ابنُ أبي حاتم، عن وهب بن مُنبّه قال: قال عُزير، عليه السلام: قال الملك الذي جاءني: فإن القبور هي بطنُ الأرض، وإن الأرض هي أم الخلق، فإذا خلق الله ما أراد أن يخلق، وتمت هذه القبورُ التي مدّ الله لها، انقطعت الدنيا ومات من عليها، ولفظت الأرض ما في جوفها، وأخرجت القبورُ ما فيها، وهذا شبيه بما قلناه من معنى الآية، والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم بالصواب. وقال: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾: فيه امتنان، وفيه استدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة على إحياء الأجسام بعد ما كانت عظاماً بالية وتراباً متمزقاً، ﴿أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ﴿٢٥﴾﴾ أي: أنزلناه من السماء على الأرض، ﴿ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ﴿٢٦﴾﴾ أي: أسكناه فيها فدخل في تُخومها وتخلّل في أجزاء الحب المودع فيها، فنبت وارتفع وظهر على وجه الأرض، ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴿٢٨﴾﴾، فالحب: كل ما يذكر من الحبوب، والعنب معروف، والقضب هو: الفصفصة التي تأكلها الدواب رطبة. ويقال لها: القتّ أيضاً. قال ذلك ابن عباس، وقتادة، والضحاك، والسدي. وقال الحسن البصري: القضب: العلف. ﴿وَزَيۡتُونٗا﴾: وهو معروف، وهو أدمٌ وعصيره أدم، ويستصبح به، ويدهن به. ﴿وَنَخۡلٗا﴾ يؤكل بلحاً، وبسراً، ورطباً، وتمراً، ونيئاً، ومطبوخاً، ويعتصر منه رُبٌّ وخل. ﴿وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴿٣٠﴾﴾ أي: بساتين. قال الحسن، وقتادة: ﴿غُلۡبٗا﴾: نخل غلاظ كرام. وقال ابن عباس، ومجاهد: «الحدائق»: كل ما التف واجتمع. وقال ابن عباس أيضاً: ﴿غُلۡبٗا﴾: الشجر الذي يستظل به. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴿٣٠﴾﴾ أي: طوال. وقال عكرمة: ﴿غُلۡبٗا﴾ أي: غلاظ الأوساط. وفي رواية: غلاظ الرقاب، ألم تر إلى الرجل إذا كان غليظ الرقبة قيل: والله إنه لأغلب. رواه ابن أبي حاتم، وأنشد ابن جرير للفرزدق:

عوى فأثار أغلبَ ضَيْغَمياً   فويل ابن المراغة ما استثار

وقوله: ﴿وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ﴿٣١﴾﴾: أما الفاكهة فهو ما يتفكه به من الثمار. قال ابن عباس: الفاكهة: كل ما أكل رطباً. والأبّ: ما

أنبتت الأرض، مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس ـ وفي رواية عنه ـ: هو الحشيش للبهائم. وقال مجاهد، وسعيد بن جبير، وأبو مالك: الأب: الكلأ. وعن مجاهد، والحسن، وقتادة، وابن زيد: الأب للبهائم كالفاكهة لبني آدم. وعن عطاء: كل شيء نبت على وجه الأرض فهو أبٌ. وقال الضحاك: كل شيء أنبتته الأرض سوى الفاكهة فهو أبٌ. وقال ابن إدريس، عن عاصم بن كليب، عن أبيه، عن ابن عباس: الأب: نبت الأرض مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس. ورواه ابن جرير من ثلاث طرق، عن ابن إدريس، ثم قال: حدثنا أبو كُرَيب وأبو السائب قالا: حدثنا ابن إدريس، حدثنا عبد الملك، عن سعيد بن جبير قال: عدّ ابن عباس وقال: الأب: ما أنبتت الأرض للأنعام. هذا لفظ أبي كريب، وقال أبو السائب: ما أنبتت الأرض مما يأكل الناس وتأكل الأنعام. وقال العوفي، عن ابن عباس: الأب: الكلأ والمرعى. وكذا قال مجاهد، والحسن، وقتادة، وابن زيد، وغير واحد. وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدثنا محمد بن يزيد، حدثنا العوام بن حوشب، عن إبراهيم التَّيمي قال: سُئل أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، عن قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾ فقال: أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني إن قلتُ في كتاب الله ما لا أعلم. وهذا منقطع بين إبراهيم التيمي والصديق. فأما ما رواه ابن جرير حيث قال: حدثنا ابن بشار، حدثنا ابن أبي عدي، حدثنا حُميد، عن أنس قال: قرأ عمر بن الخطاب ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾﴾، فلما أتى على هذه الآية: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾ قال: عرفنا ما الفاكهة، فما الأب؟ فقال: لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف. فهو إسناد صحيح، وقد رواه غير واحد عن أنس، به. وهذا محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه، وإلا فهو وكل من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض، لقوله: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضۡبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيۡتُونًا وَنَخۡلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلۡبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾. وقوله: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٢﴾﴾ أي: عيشة لكم ولأنعامكم في هذه الدار إلى يوم القيامة.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ﴿٤٠﴾ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾.

قال ابن عباس: ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾: اسم من أسماء يوم القيامة، عظمه الله، وحذّره عباده. قال ابن جرير: لعله اسم للنفخة في الصور. وقال البغوي: ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾: يعني صيحة القيامة؛ سميت بذلك لأنها تصخّ الأسماع، أي: تبالغ في إسماعها حتى تكاد تُصمّها. ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾ أي: يراهم، ويفر منهم، ويبتعد عنهم؛ لأن الهول عظيم، والخطب جليل. قال عكرمة، يلقى الرجل زوجته فيقول لها: يا هذه، أيّ بعل كنتُ لك؟ فتقول: نعم البعل كنت! وتثني بخير ما استطاعت، فيقول لها: فإني أطلبُ إليك اليوم حسنةً واحدةً تهبينها لي لعلي أنجو مما ترين. فتقول له: ما أيسر ما طلبت، ولكني لا أطيق أن أعطيك شيئاً أتخوف مثل الذي تخاف. قال: وإن الرجل ليلقى ابنه فيتعلق به فيقول: يا بني، أيّ والد كنتُ لك؟ فيثني بخير. فيقولُ له: يا بني، إني احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك لعلي أنجو بها مما ترى. فيقول ولده: يا أبت، ما أيسر ما طلبت، ولكني أتخوف مثل الذي تتخوف، فلا أستطيع أن أعطيك شيئاً. يقول الله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾. وفي الحديث الصحيح ـ في أمر الشفاعة ـ: أنه إذا طلب إلى كل من أولي العزم أن يشفع عند الله في الخلائق، يقول: نفسي نفسي، لا أسأله اليوم إلا نفسي، حتى إن عيسى ابن مريم يقول: لا أسأله اليوم إلا نفسي، لا أسأله مريم التي ولدتني. ولهذا قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾. قال قتادة: الأحب فالأحب، والأقرب فالأقرب، من هول ذلك اليوم. وقوله: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ أي: في شُغُل شاغل عن غيره. قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عمار بن الحارث، حدثنا الوليد بن صالح، حدثنا ثابت أبو زيد العباداني، عن هلال بن خبّاب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «تحشرون حفاة عراة مشاة غُرلاً». قال: فقالت زوجته: يا رسول الله، أو يرى بعضنا عورة بعض؟ قال: «﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾». أو قال: «ما أشغله عن النظر». وقد رواه النسائي منفرداً به، عن أبي داود، عن عارم، عن ثابت بن يزيد ـ وهو أبو زيد الأحول البصري، أحد الثقات ـ عن هلال بن خبّاب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، به. وقد رواه الترمذي عن عبد بن حُميد، عن محمد بن الفضل، عن ثابت بن يزيد، عن هلال بن خبّاب، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «تُحشرون حُفاة عُراة غُرلاً». فقالت امرأة: أيبصر ـ أو: يرى ـ بعضنا عورة بعض؟ قال: «يا فلانة، ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾». ثم قال الترمذي: وهذا حديث حسن صحيح، وقد روي من غير وجه عن ابن عباس، رضي الله عنه. وقال النسائي: أخبرني عمرو بن عثمان، حدثنا بقيّة، حدثنا الزبيدي، أخبرني الزهري، عن عروة، عن عائشة، أن رسول الله ﷺ قال: «يبعث الناس يوم القيامة حفاة عراة غُرلاً». فقالت عائشة: يا رسول الله، فكيف بالعورات؟ فقال: «﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾». انفرد به النسائي من هذا الوجه.

ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أزهر بن حاتم، حدثنا الفضل بن موسى، عن عائذ بن شُريح، عن أنس بن مالك قال: سألت عائشة، رضي الله عنها، رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، إني سائلتك عن حديث فتخبرني أنت به. فقال: «إن كان عندي منه علم». قالت: يا نبي الله، كيف يُحشر الرجال؟ قال: «حفاة عراة». ثم انتظرت ساعة فقالت: يا نبي الله، كيف يحشر النساء؟ قال: «كذلك حفاة عراة». قالت: واسوأتاه من يوم القيامة! قال: «وعن أي ذلك تسألين؟ إنه قد نزل علي آية لا يضرك كان عليك ثياب أو لا يكون». قالت: أيةُ آية هي يا نبي الله؟ قال: «﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٖٕ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ٣٧﴾». وقال البغوي في تفسيره: أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي، أخبرنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أخبرنا الحسين بن عبد الله، حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن، حدثنا محمد بن عبد العزيز، حدثنا ابن أبي أويس، حدثنا أبي، عن محمد بن أبي عياش، عن عطاء بن يسار، عن سودة زوج النبي ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: «يبعث الناس حفاة عراة غُرلاً قد ألجمهم العرق، وبلغ شحوم الآذان». فقلت: يا رسول الله، واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض؟ فقال: «قد شُغل الناس، ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٖٕ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ٣٧﴾». هذا حديث غريب من هذا الوجه جداً، وهكذا رواه ابن جرير عن أبي عمار الحسين بن حريث المروزي، عن الفضل بن موسى، به. ولكن قال أبو حاتم الرازي: عائذ بن شريح ضعيف، في حديثه ضعف. وقوله: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ٣٨ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ٣٩﴾ أي: يكون الناس هنالك فريقين: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ٣٨﴾ أي: مستنيرة، ﴿ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ٣٩﴾ أي: مسرورة فرحة من سرور قلوبهم، قد ظهر البشر على وجوههم، وهؤلاء أهل الجنة. ﴿وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ٤٠ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ٤١﴾ أي: يعلوها ويغشاها قترة، أي: سواد. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سهل بن عثمان العسكري، حدثنا أبو علي محمد مولى جعفر بن محمد، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «يلجم الكافر العرقُ ثم تقع الغبرة على وجوههم». قال: فهو قوله: ﴿وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ٤٠﴾. وقال ابن عباس: ﴿تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ٤١﴾ أي: يغشاها سواد الوجوه. وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ٤٢﴾ أي: الكفرة قلوبهم، الفجرة في أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا﴾ [نوح: ٢٧].

آخر تفسير سورة «عبس» ولله الحمد والمنة

❃ ❃ ❃

(٨٠) سورة عبس مكية
وآياتها ثنتان وأربعون

بسم الله الرحمن الرحيم

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى ﴾ وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن أم مكتوم ـ وأم مكتوم أم أبيه واسمه عبد الله بن شريح بن مالك بن ربيعة الفهري من بني عامر بن لؤي ـ وعنده صناديد قريش عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام ، والعباس بن عبد المطلب ، وأمية بن خلف ، والوليد ابن المغيرة يدعوهم إلى الإسلام ، رجاء أن يسلم باسلامهم غيرهم ، فقال للنبي ﷺ أقرئني وعلمني مما علمك الله ، وكرر ذلك ، فكره رسول الله ﷺ قطعه لكلامه ، وعبس وأعرض عنه فنزلت هذه الآية ، وكان رسول الله ﷺ يكرمه ، ويقول إذا رآه «مرحباً بمن عاتبني فيه ربي» ويقول هل لك من حاجة ، واستخلفه على المدينة مرتين ، وفي الموضع سؤالات :

﴿الأول﴾ أن ابن أم مكتوم كان يستحق التأديب والزجر ، فكيف عاتب الله رسوله على أن أدب ابن أم مكتوم وزجره ؟ وإنما قلنا إنه كان يستحق التأديب لوجوه (أحدها) أنه وإن كان لفقد بصره لا يرى القوم ، لكنه لصحة سمعه كان يسمع مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم أولئك الكفار ، وكان يسمع أصواتهم أيضاً ، وكان يعرف بواسطة استماع تلك الكلمات شدة اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بشأنهم ، فكان إقدامه على قطع كلام النبي صلى الله عليه وسلم وإلقاء غرض نفسه في البين قبل تمام غرض النبي إيذاء للنبي عليه الصلاة والسلام ، وذلك معصية عظيمة (وثانيها) أن الأهم مقدم على المهم ، وهو كان قد أسلم وتعلم ، ما كان يحتاج إليه من أمر الدين ، أما أولئك الكفار فما كانوا قد أسلموا ، وهو إسلامهم سبباً لإسلام جمع عظيم ، فالقاء ابن أم مكتوم ، ذلك الكلام في البين كالسبب في قطع ذلك الخير العظيم ، لغرض قليل وذلك محرم (وثالثها) أنه تعالى قال (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون) فنهاهم عن مجرد النداء إلا في الوقت ، فههنا هذا النداء الذي صار كالصارف للكفار عن قبول الإيمان وكالقاطع

على الرسول أعظم مهماته ، اولى أن يكون ذنباً ومعصية ، فثبت بهذا أن الذى فعله ابن أم مكتوم كان ذنباً ومعصية ، وأن الذى فعله الرسول كان هو الواجب ، وعند هذا يتوجه السؤال فى أنه كيف عاتبه الله تعالى على ذلك الفعل ؟ .

﴿ السؤال الثانى ﴾ أنه تعالى لما عاتبه على مجرد أنه عبس فى وجهه ، كان تعظيما عظيما من الله سبحانه لابن أم مكتوم ، وإذا كان كذلك فكيف يليق بمثل هذا التعظيم أن يذكره باسم الأعمى مع أن ذكر الإنسان بهذا الوصف يقتضى تحقير شأنه جداً ؟ .

﴿ السؤال الثالث ﴾ الظاهر أنه عليه الصلاة والسلام كان مأذوناً فى أن يعامل أصحابه على حسب ما يراه مصلحة ، وأنه عليه الصلاة والسلام كثيراً ما كان يؤدب أصحابه ويزجرهم عن أشياء ، وكيف لايكون كذلك وهو عليه الصلاة والسلام إنما بعث ليؤدبهم وليعلمهم محاسن الآداب ، وإذا كان كذلك كان ذلك التعبيس داخلا فى إذن الله تعالى إياه فى تأديب أصحابه ، وإذا كان ذلك مأذوناً فيه ، فكيف وقعت المعاتبة عليه ؟ فهذا جملة مايتعلق بهذا الموضع من الإشكالات (والجواب) عن السؤال الأول من وجهين (الأول) أن الأمر وإن كان على ما ذكرتم إلا أن ظاهر الواقعة يوهم تقديم الأغنياء على الفقراء وانكسار قلوب الفقراء ، فلهذا السبب حصلت المعاتبة ، ونظيره قوله تعالى (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى) ، (والوجه الثانى) لعل هذا العتاب لم يقع على ما صدر من الرسول عليه الصلاة والسلام من الفعل الظاهر ، بل على ما كان منه فى قلبه ، وهو أن قلبه عليه الصلاة والسلام كان قد مال إليهم بسبب قرابتهم وشرفهم وعلو منصبهم ، وكان ينفر طبعه عن الأعمى بسبب عماه وعدم قرابته وقلة شرفه ، فلما وقع التعبيس والتولى لهذه الداعية وقعت المعاتبة ، لا على التأديب ، بل على التأديب لأجل هذه الداعية (والجواب) عن السؤال الثانى أن ذكره بلفظ الأعمى ليس لتحقير شأنه ، بل كأنه قيل إنه بسبب عماه استحق مزيد الرفق والرأفة ، فكيف يليق بك يامحمد أن تخصه بالغلظة (والجواب) عن السؤال الثالث أنه كان مأذوناً فى تأديب أصحابه لكن ههنا لما أوهم تقديم الأغنياء على الفقراء ، وكان ذلك مما يوهم ترجيح الدنيا على الدين ، فلهذا السبب جاءت هذه المعاتبة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ القائلون بصدور الذنب عن الأنبياء عليهم السلام تمسكوا بهذه الآية وقالوا لما عاتبه الله فى ذلك الفعل ، دل على أن ذلك الفعل كان معصية ، وهذا بعيد فإنا قد بينا أن ذلك كان هو الواجب المتعين لابحسب هذا الاعتبار الواحد ، وهو أنه يوهم تقديم الأغنياء على الفقراء ، وذلك غير لائق بصلابة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وإذا كان كذلك ، كان ذلك جارياً مجرى ترك الاحتياط ، وترك الأفضل ، فلم يكن ذلك ذنباً البتة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أجمع المفسرون على أن الذى عبس وتولى ، هو الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأجمعوا [على] أن الأعمى هو ابن أم مكتوم ، وقرى عبس بالتشديد للمبالغة ونحوه كلح فى

وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾

كاح ، أن جاءه منصوب بتولى أو بعبس على اختلاف المذهبين فى إعمال الأقرب أو الأبعد ومعناه عبس ، لأن جاءه الأعمى ، وأعرض لذلك ، وقرىء أن جاءه بهمزتين ، وبألف بينهما وقف على (عبس وتولى) ثم ابتدأ على معنى الأن جاءه الأعمى ، والمراد منه الإنكار عليه . واعلم أن فى الأخبار عما فرط من رسول الله ثم الإقبال عليه بالخطاب دليل على زيادة الإنكار ، كمن يشكو إلى الناس جانياً جنى عليه ، ثم يقبل على الجانى إذا حمى فى الشكاية مواجهاً بالتوبيخ وإلزام الحجة

قوله تعالى : ﴿ وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنفعه الذكرى ﴾ فيه قولان (الأول) أى شىء يجعلك دارياً بحال هذا الأعمى لعله يتطهر بما يتلقن منك ، من الجهل أو الإثم ، أو يتعظ فتنفعه ذكراك أى موعظتك ، فتكون له لطفاً فى بعض الطاعات ، وبالجملة فلعل ذلك العلم الذى يتلقفه عنك يطهره عن بعض مالا ينبغى ، وهو الجهل والمعصية ، أو يشغله ببعض ما ينبغى وهو الطاعة (الثانى) أن الضمير فى لعله للكافر ، بمعنى أنت طمعت فى أن يزكى الكافر بالإسلام أو يذكر فتقربه الذكرى إلى قبول الحق (وما يدريك) أن ما طمعت فيه كائن ، وقرىء فتنفعه بالرفع عطفاً على يذكر ، وبالنصب جواباً للعل ، كقوله (فأطلع إلى إله موسى) وقد مر .

ثم قال ﴿ أما من استغنى ﴾ قال عطاء يريد عن الإيمان ، وقال الكلبى استغنى عن الله ، وقال بعضهم استغنى أثرى وهو فاسد ههنا ، لأن إقبال النبى عليه الصلاة والسلام لم يكن لثروتهم ومالهم حتى يقال له أما من أثرى ، فأنت تقبل عليه ، ولأنه قال (وأما من جاءك يسعى ، وهو يخشى) ولم يقل وهو فقير عديم ، ومن قال : أما من استغنى بماله فهو صحيح ، لأن المعنى أنه استغنى عن الإيمان والقرآن ، بماله من المال .

قوله تعالى : ﴿ فأنت له تصدى ﴾ قال الزجاج : أى أنت تقبل عليه وتتعرض له وتميل إليه ، يقال تصدى فلان لفلان ، يتصدى إذا تعرض له ، والأصل فيه تصدد يتصدد من الصدد ، وهو ما استقبلك وصار قبالتك ، وقد ذكرنا مثل هذا فى قوله (إلا مكاء وتصدية) وقرىء (تصدى) بالتشديد بإدغام التاء فى الصاد ، وقرأ أبو جعفر : تصدى ، بضم التاء ، أى تعرض ، ومعناه يدعوك داع إلى التصدى له من الحرص ، والتهالك على إسلامه

ثم قال تعالى ﴿ وما عليك ألا يزكى ﴾ المعنى لا شىء عليك فى أن لا يسلم من تدعوه إلى الإسلام ، فإنه ليس عليك إلا البلاغ ، أى لا يبلغن بك الحرص على إسلامهم إلى أن تعرض عمن أسلم للاشتغال بدعوتهم .

وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾

ثم قال ﴿ وأما من جاءك يسعى ﴾ أن يسرع فى طلب الخير ، كقوله (فاسعوا إلى ذكر الله) .
وقوله ﴿ وهو يخشى ﴾ فيه ثلاثة أوجه يخشى الله ويخافه فى أن لا يهتم بأداء تكاليفه ، أو يخشى الكفار وأذاهم فى إتيانك ، أو يخشى الكبوة فإنه كان أعمى ، وماكان له قائد .
ثم قال ﴿ فأنت عنه تلهى ﴾ أى تتشاغل من لهى عن الشيء والتهى و تلهى ، وقرأ طلحة ابن مصرف . تتلهى ، وقرأ أبو جعفر (تلهى) أى يلهيك شأن الصناديد ، فإن قيل قوله (فأنت له تصدى .. فأنت عنه تلهى) كان فيه اختصاصاً ، قلنا نعم ، ومعناه إنكار التصدى والتلهى عنه ، أى مثلك ، خصوصاً لا ينبغى أن يتصدى للغنى ، و يتلهى عن الفقير .
ثم قال ﴿ كلا ﴾ وهو ردع عن المعاتب عليه وعن معاودة مثله . قال الحسن : لما تلا جبريل عن النبي ﷺ هذه الآيات عاد وجهه ، كأنما أسف الرماد فيه ينتظر ماذا يحكم الله عليه ، فلما قال (كلا) سرى منه ، أى لا تفعل مثل ذلك ، وقد بينا نحن أن ذلك محمول على ترك الأولى .
ثم قال ﴿ إنها تذكرة ﴾ وفيه سؤالان :
﴿ الأول ﴾ قوله (إنها) ضمير المؤنث ، وقوله (فمن شاء ذكره) ضمير المذكر ، والضميران عائدان إلى شيء واحد ، فكيف القول فيه ؟ (الجواب) وفيه وجهان (الأول) أن قوله (إنها) ضمير المؤنث ، قال مقاتل : يعنى آيات القرآن ، وقال الكلبي : يعنى هذه السورة وهو قول الأخفش والضمير فى قوله (فمن شاء ذكره) عائد إلى التذكرة أيضاً ، لأن التذكرة فى معنى الذكر والوعظ (الثانى) قال صاحب النظم إنها تذكرة يعنى به القرآن والقرآن مذكر إلا أنه لما جعل القرآن تذكرة أخرجه على لفظ التذكرة ، ولو ذكره لجاز كما قال فى موضع آخر (كلا إنه تذكرة) والدليل على أن قوله (إنها تذكرة) المراد به القرآن قوله (فمن شاء ذكره) .
﴿ السؤال الثانى ﴾ كيف اتصال هذه الآية بما قبلها ؟ (الجواب) من وجهين (الأول) كأنه قيل : هذا التأديب الذى أوحيته إليك وعرفته لك فى إجلال الفقراء وعدم الالتفات إلى أهل الدنيا أثبت فى اللوح المحفوظ الذى قد وكل بحفظه أكابر الملائكة (الثانى) كأنه قيل : هذا القرآن قد بلغ فى العظمة إلى هذا الحد العظيم ، فأى حاجة به إلى أن يقبله هؤلاء الكفار ، فسواء قبلوه أو لم يقبلوه فلا تلتفت إليهم ولا تشغل قلبك بهم ، وإياك وأن تعرض عمن آمن به تطييباً لقلب أرباب الدنيا .

فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فمن شاء ذكره ، فى صحف مكرمة ، مرفوعة مطهرة ﴾ .

اعلم أنه تعالى وصف تلك التذكرة بأمرين (الأول) قوله (فمن شاء ذكره) أى هذه تذكرة بينة ظاهرة بحيث لو أرادوا فهمها والاتعاظ بها والعمل بموجبها لقدروا عليه (والثانى) قوله (فى صحف مكرمة) أى تلك التذكرة موجودة فى هذه الصحف المكرمة ، والمراد من ذلك تعظيم حال القرآن والتنويه بذكره والمعنى أن هذه التذكرة مثبتة فى صحف ، والمراد من الصحف قولان (الأول) أنها صحف منتسخة من اللوح مكرمة عندالله تعالى مرفوعة فى السماء السابعة أومرفوعة المقدار مطهرعن أيدى الشياطين ، أو المراد مطهرة بسبب أنها لا يمسها إلا المطهرون وهم الملائكة .

قوله تعالى : ﴿ بأيدى سفره ، كرام بررة ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أن الله تعالى وصف الملائكة بثلاثة أنواع من الصفات :

﴿ أولها ﴾ أنهم سفرة وفيه قولان (الأول) قال ابن عباس ومجاهد ومقاتل وقتادة هم الكتبة من الملائكة ، قال الزجاج السفرة الكتبة واحدها سافر مثل كتبة وكاتب ، وإنما قيل للكتبة سفرة وللكاتب سافر ، لأن معناه أنه الذى يبين الشىء ويوضحه يقال سفرت المرأة إذا كشفت عن وجهها (القول الثانى) وهو اختيار الفراء أن السفرة ههنا هم الملائكة الذين يسفرون بالوحى بين الله وبين رسله ، واحدها سافر ، والعرب تقول : سفرت بين القوم إذا أصلحت بينهم ، فجعلت الملائكة إذا نزلت بوحى الله وتأديته ، كالسفير الذى يصلح به بين القوم ، وأنشدوا :

وما أدع السفارة بين قومى   وما أمشى بغش إن مشيت

واعلم أن أصل السفارة من الكشف ، والكاتب إنما يسمى سافراً لأنه يكشف ، والسفير إنما سمى سفيراً أيضا لأنه يكشف ، وهؤلاء الملائكة لما كانوا وسايط بين الله وبين البشر فى البيان والهداية والعلم ، لاجرم سموا سفرة .

﴿ الصفة الثانية لهؤلاء الملائكة ﴾ (أنهم كرام) قال مقاتل : كرام على ربهم ، وقال عطاء : يريد أنهم يتكرمون أن يكونوا مع ابن آدم إذا خلا مع زوجته للجماع وعند قضاء الحاجة .

﴿ الصفة الثانية ﴾ أنهم (بررة) قال مقاتل : مطيعين ، وبررة جمع بار ، قال الفراء : لا يقولون فعلة للجمع إلا والواحد منه فاعل مثل كافر وكفرة ، وفاجر وفجرة (القول الثانى) فى تفسير الصحف : أنها هى صحف الأنبياء لقوله (إن هذا لفى الصحف الأولى) يعنى أن هذه التذكرة مثبتة فى صحف الأنبياء المتقدمين ، والسفرة الكرام البررة هم أصحاب رسول الله ﷺ ، وقيل هم القراء .

قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله تعالى (مطهرة بأيدى سفرة) يقتضى أن طهارة تلك الصحف إنما حصلت بأيدى هؤلاء السفرة ، فقال القفال فى تقريره : لما كان لا يمسها إلا الملائكة المطهرون أضيف التطهير إليها لطهارة من يمسها .

قوله تعالى : ﴿ قتل الإنسان ما أكفره ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أنه تعالى لما بدأ بذكر القصة المشتملة على ترفع صناديد قريش على فقراء المسلمين ، عجب عباده المؤمنين من ذلك ، فكأنه قيل : وأى سبب فى هذا العجب والترفع مع أن أوله نطفة قذرة وآخره جيفة مذرة ، وفيما بين الوقتين حمال عذرة ، فلاجرم ذكر تعالى ما يصلح أن يكون علاجاً لعجبهم ، وما يصلح أن يكون علاجاً لكفرهم ، فإن خلقة الإنسان تصلح لأن يستدل بها على وجود الصانع ، ولأن يستدل بها على القول بالبعث والحشر والنشر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال المفسرون : نزلت الآية فى عتبة بن أبى لهب ، وقال آخرون : المراد بالإنسان الذين أقبل الرسول عليهم وترك ابن أم مكتوم بسببهم ، وقال آخرون بل المراد ذم كل غنى ترفع على فقير بسبب الغنى والفقر ، والذى يدل على ذلك وجوه (أحدها) أنه تعالى ذمهم لترفعهم فوجب أن يعم الحكم بسبب عموم العلة (وثانيها) أنه تعالى زيف طريقتهم بسبب حقارة حال الإنسان فى الابتداء والانتهاء على ما قال (من نطفة خلقه ، ثم أماته فأقبره) وعموم هذا الزجر يقتضى عموم الحكم (وثالثها) وهو أن حمل اللفظ على هذا الوجه أكثر فائدة ، واللفظ محتمل له فوجب حمله عليه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله تعالى (قتل الإنسان) دعاء عليه وهى من أشنع دعواتهم ، لأن القتل غاية شدائد الدنيا وما أكفره تعجب من إفراطه فى كفران نعمة الله ، فقوله (قتل الانسان) تنبيه على أنهم استحقوا أعظم أنواع العقاب ، وقوله (ما أكفره) تنبيه على أنواع القبائح والمنكرات ، فإن قيل الدعاء على الإنسان إنما يليق بالعاجز والقادر على الكل كيف يليق به ذاك ؟ والتعجب أيضاً إنما يليق بالجاهل بسبب الشىء ، فالعالم بالكل كيف يليق به ذاك ؟ (الجواب) أن ذلك ورد على أسلوب كلام العرب وتحقيقه ما ذكرنا أنه تعالى بين أنهم استحقوا أعظم أنواع العقاب لأجل أنهم أتوا بأعظم أنواع القبائح ، واعلم أن لكل محدث ثلاث مراتب أوله ووسطه وآخره ، وأنه تعالى ذكر هذه المراتب الثلاثة للانسان .

﴿ أما المرتبة الأولى ﴾ فهى قوله ﴿ من أى شىء خلقه ﴾ وهو استفهام وغرضه زيادة التقرير فى التحقير .

ثم أجاب عن ذلك الاستفهام بقوله ﴿ من نطفة خلقه ﴾ ولا شك أن النطفة شىء حقير مهين

فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾

والغرض منه أن من كان أصله [من] مثل هـذا الشيء الحقير ، فالتكبر والتجبر لا يكون لائقاً به .

ثم قال ﴿ فقدره ﴾ وفيه وجوه (أحدها) قال الفراء : قدره أطواراً نطفة ثم علقة إلى آخر خلقه وذكراً أو أنثى وسعيداً أو شقياً (وثانيها) قال الزجاج : المعنى قدره على الاستواء كما قال (أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا) ، (وثالثها) يحتمل أن يكون المراد وقدر كل عضو فى الكمية والكيفية بالقدر اللائق بمصلحته ، ونظيره قوله (وخلق كل شىء فقدره تقديراً).

﴿ وأما المرتبة الثانية ﴾ وهى المرتبة المتوسطة فهى قوله تعالى ﴿ ثم السبيل يسره ﴾ وفيه مسألتان

﴿ المسألة الأولى ﴾ نصب السبيل بإضمار يسره ، وفسره بيسره ،

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكروا فى تفسيره أقوالا (أحدها) قال بعضهم المراد تسهيل خروجه من بطن أمه ، قالوا إنه كان رأس المولود فى بطن أمه من فوق ورجلاه من تحت ، فإذا جاء وقت الخروج انقلب ، فمن الذى أعطاه ذلك الإلهام إلا الله ، ومما يؤكد هذا التأويل أن خروجه حياً من ذلك المنفذ الضيق من أعجب العجائب (وثانيها) قال أبو مسلم : المراد من هذه الآية ، هو المراد من قوله (وهديناه النجدين) فهو يتناول التمييز بين كل خير وشر يتعلق بالدنيا ، وبين كل خير وشر يتعلق بالدين أى جعلناه متمكنا من سلوك سبيل الخير والشر ، والتيسير يدخل فيه الإقدار والتعريف والعقل وبعثة الأنبياء ، وإنزال الكتب (وثالثها) أن هذا مخصوص بأمر الدين ، لأن لفظ السبيل مشعر بأن المقصود أحوال الدنيا [لا] أمور تحصل فى الآخرة .

﴿ وأما المرتبة الثانية ﴾ وهى المرتبة الأخيرة ، فهى قوله تعالى ﴿ ثم أماته فأقبره ، ثم إذا شاء أنشره ﴾ :

واعلم أن هذه المرتبة الثالثة مشتملة أيضاً على ثلاث مراتب ، الإماتة ، والإقبار ، والإنشار ، أما الإماتة فقد ذكرنا منافعها فى هذا الكتاب ، ولا شك أنها هى الواسطة بين حال التكليف والمجازاة ، وأما الإقبار فقال الفراء جعله الله مقبوراً ولم يجعله ممن يلقى للطير والسباع ، لأن القبر مما أكرم به الانسان قال ولم يقل فقبره ، لأن القابر هو الدافن بيده ، والمقبر هو الله تعالى ، يقال قبر الميت إذا دفنه وأقبر الميت ، إذا أمر غيره بأن يجعله فى القبر ، والعرب تقول بترت ذنب البعير ، والله أبتره وعضبت قرن الثور ، والله أعضبه ، وطردت فلاناً عنى ، والله أطرده . أى صيره طريداً ، وقوله تعالى (ثم إذا شاء أنشره) المراد منه الإحياء [و] البعث ، وإنما قال إذا شاء إشعاراً بأن وقته غير معلوم لنا ، فتقديمه وتأخيره موكول إلى مشيئة الله تعالى ، وأما سائر الأحوال

كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾

المذكورة قبل ذلك فإنه يعلم أوقاتها من بعض الوجوه ، إذ الموت وإن لم يعلم الإنسان وقته ففى الجملة يعلم أنه لا يتجاوز فيه إلا حداً معلوماً .

قوله تعالى : ﴿ كلا لما يقض ما أمره ﴾

واعلم أن قوله (كلا) ردع للانسان عن تكبره وترفعه ، أو عن كفره وإصراره على إنكار التوحيد ، وعلى إنكاره البعث والحشر والنشر ، وفى قوله (لما يقض ما أمره) وجوه (أحدها) قال مجاهد لا يقضى أحد جميع ما كان مفروضاً عليه أبداً ، وهو إشارة إلى أن الإنسان لا ينفك عن تقصير البتة ، وهذا التفسير عندى فيه نظر ، لأن قوله (لما يقض) الضمير فيه عائد إلى المذكور السابق ، وهو الإنسان فى قوله (قتل الإنسان ما أكفره) وليس المراد من الإنسان ههنا جميع الناس بل الإنسان الكافر فقوله (لما يقض) كيف يمكن حمله على جميع الناس (وثانيها) أن يكون المعنى أن الإنسان المترفع المتكبر لم يقض ما أمر به من ترك التكبر ، إذ المعنى أن ذلك الإنسان الكافر لم يقض ما أمر به من التأمل فى دلائل الله ، والتدبر فى عجائب خلقه وبينات حكمته (وثالثها) قال الأستاذ أبو بكر بن فورك : كلا لم يقض الله لهذا الكافر ما أمره به من الإيمان وترك التكبر ، بل أمره بما لم يقض له به .

واعلم أن عادة الله تعالى جارية فى القرآن بأنه كلما ذكر الدلائل الموجودة فى الأنفس ، فإنه يذكر عقيبها الدلائل الموجودة فى الآفاق فجرى ههنا على تلك العادة وذكر دلائل الآفاق وبدأ بما يحتاج الإنسان إليه .

فقال ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه ﴾ الذى يعيش به كيف دبرنا أمره ، ولا شك أنه موضع الاعتبار ، فإن الطعام الذى يتناول الانسان له حالتان (إحداهما) متقدمة وهى الأمور التى لابد من وجودها حتى يدخل ذلك الطعام فى الوجود (والثانية) متأخرة ، وهى الأمور التى لابد منها فى بدن الانسان حتى يحصل له الانتفاع بذلك الطعام المأكول ، ولما كان النوع الأول أظهر للحس وأبعد عن الشبهة ، لا جرم اكتفى الله تعالى بذكره ، لأن دلائل القرآن لابد وأن تكون بحيث ينتفع بها كل الخلق ، فلا بد وأن تكون أبعد عن اللبس والشبهة ، وهذا هو المراد من قوله (فلينظر الإنسان إلى طعامه) واعلم أن النبت إنما يحصل من القطر النازل من السماء الواقع فى الأرض ، فالسماء كالذكر ، والأرض كالأنثى فذكر فى بيان نزل القطر .

قوله تعالى : ﴿ أنا صببنا الماء صباً ﴾ وفيه مسألتان :

ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾
وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (صببنا) المراد منه الغيث ، ثم انظر فى أنه كيف حدث الغيث المشتمل على هذه المياه العظيمة ، وكيف بقى معلقاً فى جو السماء مع غاية ثقله ، وتأمل فى أسبابه القريبة والبعيدة ، حتى يلوح لك شىء من آثار نور الله وعدله وحكمته ، وفى تدبير خلقة هذا العالم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرىء إنا بالكسر ، وهو على الاستئناف ، وأنا بالفتح على البدن من الطعام والتقدير (فلينظر الإنسان) إلى أنا كيف (صببنا الماء) قال أبو على الفارسى من قرأ بكسر إنا كان ذلك تفسيراً للنظر إلى طعامه كما أن قوله (لهم مغفرة) تفسير للوعد ، ومن فتح فعلى معنى البدل بدل الاشتمال ، لأن هذه الأشياء تشتمل على كون الطعام وحدوثه ، فهو كقوله (يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه) وقوله (قتل أصحاب الأخدود ، النار) .

قوله تعالى : ﴿ ثم شققنا الأرض شقاً ﴾ والمراد شق الأرض بالنبات ، ثم ذكر تعالى ثمانية أنواع من النبات :

(أولها) الحب : وهو المشار إليه بقوله ﴿ فأنبتنا فيها حباً ﴾ وهو كل ما حصد من نحو الحنطة والشعير وغيرهما ، وإنما قدم ذلك لأنه كالأصل فى الأغذية .

(وثانيها) قوله تعالى ﴿ وعنباً ﴾ وإنما ذكره بعد الحب لأنه غذا من وجه وفاكهة من وجه .

(وثالثها) قوله تعالى ﴿ وقضباً ﴾ وفيه قولان

﴿ الأول ﴾ أنه الرطبة وهى التى إذا يبست سميت بالقت ، وأهل مكة يسمونها بالقضب وأصله من القطع ، وذلك لأنه يقضب مرة بعد أخرى ، وكذلك للقضيب لأنه يقضب أى يقطع . وهذا قول ابن عباس والضحاك ومقاتل واختيار الفراء وأبى عبيدة والأصمعى .

﴿ والثانى ﴾ قال المبرد القضب هو العلف بعينه ، وأصله من أنه يقضب أى يقطع وهو قول الحسن .

(والرابع والخامس) قوله تعالى ﴿ وزيتوناً ونخلا ﴾ ومنافعهما قد تقدمت فى هذا الكتاب .

(وسادسها) قوله تعالى ﴿ وحدائق غلبا ﴾ الأصل فى الوصف بالغلب الرقاب فالغلب الغلاظ الأعناق الواحد أغلب ، يقال أسد أغلب ، ثم ههنا قولان :

﴿ الأول ﴾ أن يكون المراد وصف كل حديقة بأن أشجارها متكاثفة متقاربة ، وهذا قول مجاهد ومقاتل قالا الغلب الملتفة الشجر بعضه فى بعض ، يقال اغلوب العشب واغلولبت الأرض إذا التف عشبها .

وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾

﴿ والثانى ﴾ أن يكون المراد وصف كل واحد من الأشجار بالغلظ والعظم ، قال عطاء عن ابن عباس يريد الشجر العظام ، وقال الفراء الغلب ماغلظ من النخل ،

(وسابعها) قوله ﴿ وفاكهة ﴾ وقد استدل بعضهم بأن الله تعالى لما ذكر الفاكهة معطوفة على العنب والزيتون والنخل وجب أن لا تدخل هذه الأشياء فى الفاكهة ، وهذا قريب من جهة الظاهر ، لأن المعطوف مغاير المعطوف عليه .

(وثامنها) قوله تعالى ﴿ وأبا ﴾ والأب هو المرعى ، قال صاحب الكشاف لأنه يؤب أى يؤم وينتجع ، والأب والأم أخوان قال الشاعر :

جذمنا قيس ونجد دارنا   لنا الأب به والمكرع

وقيل الأب الفاكهة اليابسة لأنها تؤدب للشتاء أى تعد ، ولما ذكر الله تعالى ما يغتذى به الناس والحيوان . قال ﴿ متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ .

قال الفراء خلقناه منفعة ومتعة لكم ولأنعامكم ، وقال الزجاج هو منصوب لأنه مصدر مؤكد لقوله (فأنبتنا) لأن إنباته هذه الأشياء إمتاع لجميع الحيوان .

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه الأشياء وكان المقصود منها أمورا ثلاثة : (أولها) الدلائل الدالة على التوحيد (وثانيها) الدلائل الداله على القدرة على المعاد (وثالثها) أن هذا الإله الذى أحسن إلى عبيده بهذه الأنواع العظيمة من الإحسان . لا يليق بالعاقل أن يتمرد عن طاعته وأن يتكبر على عبيده أتبع هذه الجملة بما يكون مؤكداً لهذه الأغراض وهو شرح أهوال القيامة ، فإن الإنسان إذا سمعها خاف فيدعوه ذلك الخوف إلى التأمل فى الدلائل والإيمان بها والإعراض عن الكفر ، ويدعوه ذلك أيضاً إلى ترك التكبر على الناس ، وإلى إظهار التواضع إلى كل أحد ، فلا جرم ذكر القيامة :

فقال ﴿ فإذا جاءت الصاخة ﴾ قال المفسرون يعنى صيحة القيامة وهى النفخة الأخيرة ، قال الزجاج أصل الصخ فى اللغة الطعن والصك ، يقال صخ رأسه بحجر أى شدخه والغراب يصخ بمنقاره فى دبر البعير أى يطعن ، فمعنى الصاخة الصاكة بشدة صوتها للآذان ، وذكر صاحب الكشاف وجهاً آخر فقال يقال صخ لحديثه مثل أصاخ له ، فوصفت النفخة بالصاخة مجازاً لأن الناس يصخون لها أى يستمعون .

ثم إنه تعالى وصف هول ذلك اليوم بقوله تعالى ﴿ يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ﴾ وفيه مسألتان :

لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾

﴿ المسألة الأولى ﴾ يحتمل أن يكون المراد من الفرار مايشعر به ظاهره وهو التباعد والاحتراز والسبب فى ذلك الفرار الاحتراز عن المطالبة بالتبعات . يقول الأخ ما واسيتني بمالك ، والأبوان يقولان قصرت فى برنا ، والصاحبة تقول أطعمتني الحرام ، وفعلت وصنعت ، والبنون يقولون ماعلمتنا وما أرشدتنا ، وقيل أول من يفر من أخيه هابيل ، ومن أبويه إبراهيم ، ومن صاحبته نوح ولوط ، ومن ابنه نوح ، ويحتمل أن يكون المراد من الفرار ليس هو التباعد ، بل المعنى أنه يوم يفر المرء من موالاة أخيه لاهتمامه بشأنه ، وهو كقوله تعالى (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا) وأما الفرار من نصرته ، وهو كقوله تعالى (يوم لايغنى مولى عن مولى شيئاً) وأما ترك السؤال وهو كقوله تعالى (ولا يسأل حميم حميما) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المراد أن الذين كان المرء فى دار الدنيا يفر إليهم ويستجير بهم ، فإنه يفر منهم فى دار الآخرة ، ذكروا فى فائدة الترتيب كأنه قيل (يوم يفر المرء من أخيه) بل من أبويه فإنهما أقرب من الأخوين بل من الصاحبة والولد ، لأن تعلق القلب بهما اشد من تعلقه بالأبوين .

ثم إنه تعالى لما ذكر هذا الفرار أتبعه بذكر سببه فقال تعالى ﴿ لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ وفى قوله (يغنيه) وجهان (الأول) قال ابن قتيبة يغنيه أى يصرفه ويصده عن قرابته وأنشد :

سيغنيك حرب بنى مالك عن الفحش والجهل فى المحفل

أى سيشغلك ، ويقال أغن عنى وجهك أى أصرفه (الثانى) قال أهل المعانى يغنيه أى ذلك الهم الذى بسبب خاصة نفسه قد ملأ صدره ، فلم يبق فيه متسع لهم آخر ، فصارت شبيهاً بالغنى فى أنه حصل عنده من ذلك المملوك شىء كثير .

واعلم أنه تعالى لما ذكر حال يوم القيامة فى الهول ، بين أن المكلفين فيه على قسمين منهم السعداء ، ومنهم الأشقياء فوصف السعداء بقوله تعالى ﴿ وجوه يومئذ مسفرة ، ضاحكة مستبشرة ﴾ مسفرة مضيئة متهللة ، من أسفر الصبح إذا أضاء ، وعن ابن عباس من قيام الليل لما روى من كثرت صلاته بالليل ، حسن وجهه بالنهار ، وعن الضحاك ، من آثار الوضوء ، وقيل من طول ما اغبرت فى سبيل الله ، وعندى أنه بسبب الخلاص من علائق الدنيا والاتصال بعالم القدس ومنازل الرضوان والرحمة ضاحكة ، قال الكلبي يعنى بالفراغ من الحساب مستبشرة فرحة بما نالت من كرامة الله ورضاه ، واعلم أن قوله مسفرة إشارة إلى الخلاص عن هذا العالم وتبعاته

وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

وأما الضاحكة والمستبشرة ، فهما محمولتان على القوة النظرية والعملية ، أو على وجدان المنفعة ووجدان التعظيم .

﴿ ووجوه يومئذ عليها غبرة ، ترهقها قترة ، أولئك هم الكفرة الفجرة ﴾ قال المبرد الغبرة ما يصيب الإنسان من الغبار ، وقوله (ترهقها) أى تدركها عن قرب ، كقولك رهقت الجبل إذا لحقته بسرعة ، والرهق عجلة الهلاك ، والقترة سواد كالدخان ، ولا يرى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد فى الوجه ، كما ترى وجوه الزنوج إذا اغبرت ، وكأن الله تعالى جمع فى وجوههم بين السواد والغبرة ، كما جمعوا بين الكفر والفجور ، والله أعلم .

واعلم أن المرجئة والخوارج تمسكوا بهذه الآية ، أما المرجئة فقالوا إن هذه الآية دلت على أن أهل القيامة قسمان : أهل الثواب ، وأهل العقاب ، ودلت على أن أهل العقاب هم الكفرة ، وثبت بالدليل أن الفساق من أهل الصلاة ليسوا بكفرة ، وإذا لم يكونوا من الكفرة كانوا من أهل الثواب ، وذلك يدل على أن صاحب الكبيرة من أهل الصلاة ليس له عقاب ، وأما الخوارج فإنهم قالوا دلت سائر الدلائل على أن صاحب الكبيرة يعاقب ، ودلت هذه الآية على أن كل من يعاقب فإنه كافر ، فيلزم أن كل مذنب فإنه كافر (والجواب) أكثر ما فى الباب أن المذكور ههنا هو هذا الفريقان ، وذلك لا يقتضى نفى الفريق الثالث ، والله أعلم ؛ والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيد المرسلين محمد النبى وآله وصحبه أجمعين .

٨٠ - سورة عبس
(مكية وهى إثنان وأربعون آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ ٨٠ عبس

أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ ٨٠ عبس

وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴿٣﴾ ٨٠ عبس

﴿ سورة عبس مكية وآياتها إثنان وأربعون ﴾

١، ٢ (بسم الله الرحمن الرحيم) (عبس وتولى) (أن جاءه الأعمى) روى أن ابن أم مكتوم واسمه عبد الله بن شريح بن مالك بن أبى ربيعة الفهرى وأم مكتوم اسم أم أبيه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده صناديد قريش عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة يدعوهم إلى الإسلام رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم فقال له يارسول الله أقرئنى وعلمنى مما علمك الله تعالى وكرر ذلك وهو لايعلم تشاغله عليه الصلاة والسلام بالقوم فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعه لكلامه وعبس وأعرض عنه فنزلت فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرمه ويقول إذا رآه مرحباً بمن عاتبنى فيه ربى ويقول له هل لك من حاجة واستخلفه على المدينة مرتين وقرىء عبس بالتشديد للمبالغة وأن جاءه علة لتولى أو عبس على اختلاف الرأيين أى لأن جاءه الأعمى والتعرض لعنوان عماه إما لتمهيد عذره فى الإقدام على قطع كلامه عليه الصلاة والسلام بالقوم والإيذان باستحقاقه بالرفق والرأفة وإما لزيادة الإنكار كأنه قيل تولى لكونه أعمى كما أن الالتفات فى قوله تعالى (وما يدريك) لذلك فإن المشافهة أدخل فى تشديد العتاب أى وأى شىء يجعلك

٣ داريا بحاله حتى تعرض عنه وقوله تعالى (لعله يزكى) استئناف وارد لبيان مايلوح به ماقبله فإنه مع إشعاره بأن له شأناً منافياً للإعراض عنه خارجا عن دراية الغير وإدرائه مؤذن بأنه تعالى يدريه ذلك أى لعله يتطهر بمايقتبس منك من أوضار الأوزار بالكلية وكلمة لعل مع تحقق التزكى واردة على سنن الكبرياء أو على اعتبار معنى الترجى بالنسبة إليه عليه الصلاة والسلام للتنبيه على أن الإعراض عنه عند كونه مرجو التزكى مما لايجوز فكيف إذا كان مقطوعا بالتزكى كما فى قولك لعلك ستندم على مافعلت وفيه إشارة إلى أن من تصدى لتزكيتهم من الكفرة لايرجى منهم التزكى والتذكر أصلا .

أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ ٨٠ عبس

أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ ٨٠ عبس

فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ ٨٠ عبس

وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ ٨٠ عبس

وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ ٨٠ عبس

وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ ٨٠ عبس

فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ ٨٠ عبس

كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ ٨٠ عبس

٤ وقوله تعالى (أو يذكر) عطف على يزكى داخل معه فى حكم الترجى وقوله تعالى (فتنفعه الذكرى) بالنصب على جواب لعل وقرىء بالرفع عطفاً على يذكر أى أو يتذكر فتنفعه موعظتك إن لم يبلغ درجة التزكى التام وقيل الضمير فى لعله للكافر فالمعنى إنك طمعت فى أن يتزكى أو يذكر فتقربه الذكرى

٥ إلى قبول الحق ولذلك توليت عن الأعمى وما يدريك أن ذلك مرجو الوقوع (أما من استغنى) أى

٦ عن الإيمان وعما عندك من العلوم والمعارف التى ينطوى عليها القرآن (فأنت له تصدى) أى تتصدى وتتعرض بالإقبال عليه والاهتمام بإرشاده واستصلاحه وفيه مزيد تنفير له عليه الصلاة والسلام عن مصاحبتهم فإن الإقبال على المدبر ليس من شيم الكبار وقرىء تصدى بإدغام التاء فى الصاد وقرىء تصدى بضم التاء أى تعرض ومعناه يدعوك إلى التصدى له داع من الحرص والتهالك على إسلامه

٧ (وما عليك أن لا يزكى) وليس عليك بأس فى أن لايتزكى بالإسلام حتى تهتم بأمره وتعرض عمن أسلم والجملة حال من ضمير تصدى وقيل ما استفهامية للإنكار أى أى شىء عليك فى أن لايتزكى ومآله

٨ النفى أيضاً (وأما من جاءك يسعى) أى حال كونه مسرعا طالباً لما عندك من أحكام الرشد وخصال

٩ الخير (وهو يخشى) أى الله تعالى وقيل يخشى أذية الكفار فى إتيانك وقيل يخشى الكبوة إذ لم يكن

١٠ معه قائد والجملة حال من فاعل يسعى كما أنه حال من فاعل جاءك (فأنت عنه تلهى) تتشاغل يقال لهى عنه والتهى وتلهى وقرىء تتلهى وتلهى أى يلهيك شأن الصناديد وفى تقديم ضميره عليه الصلاة والسلام على الفعلين تنبيه على أن مناط الإنكار خصوصيته عليه الصلاة والسلام أى مثلك خصوصاً لا ينبغى أن يتصدى للمستغنى ويتلهى الفقير الطالب للخير وتقديم له وعنه للتعريض باهتمامه عليه الصلاة والسلام

١١ بمضمونهما . روى أنه عليه الصلاة والسلام ماعبس بعد ذلك فى وجه فقير قط ولا تصدى لغنى (كلا)

فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ ٨٠ عبس

فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ ٨٠ عبس

مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ ٨٠ عبس

بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ ٨٠ عبس

ردع له عليه الصلاة والسلام عما عوتب عليه من التصدى لمن استغنى عما دعاه إليه من الإيمان والطاعة وما يوجبهما من القرآن الكريم مبالغاً فى الاهتمام بأمره متهالكا على إسلامه معرضاً بسبب ذلك عن إرشاد من يسترشده وقوله تعالى (إنها تذكرة) أى موعظة يجب أن يتعظ بها ويعمل بموجبها تعليل * للردع عما ذكر ببيان علو رتبة القرآن العظيم الذى استغنى عنه من تصدى عليه الصلاة والسلام له وتحقيق أن شأنه أن يكون موعظة حقيقة بالاتعاظ بها فمن رغب فيها اتعظ بها كما نطق به قوله تعالى (فمن شاء ذكره) أى حفظه واتعظ به ومن رغب عنها كما فعل المستغنى فلا حاجة إلى الاهتمام بأمره ١٢ فالضميران للقرآن وتأنيث الأول لتأنيث خبره وقيل الأول للسورة أو للآيات السابقة والثانى للتذكرة والتذكير لأنها فى معنى الذكر والوعظ وليس بذاك فإن السورة والآيات وإن كانت متصفة بما سيأتى من الصفات الشريفة لكنها ليست مما ألقى على من استغنى عنه واستحق بسبب ذلك ما سيأتى من الدعاء عليه والتعجب من كفره المفرط لنزولها بعد الحادثة وأما من جوز رجوعهما إلى العتاب المذكور فقد أخطأ وأساء الأدب وخبط خبطاً يقضى منه العجب فتأمل وكن على الحق المبين وقوله تعالى (فى صحف) ١٣ متعلق بمضمر هو صفة لتذكرة وما بينهما اعتراض جىء به للترغيب فيها والحث على حفظها أى كائنة فى صحف منتسخة من اللوح أو خبر ثان لأن (مكرمة) عند الله عز وجل (مرفوعة) أى فى السماء ١٤ السابعة أو مرفوعة المقدار والذكر (مطهرة) منزهة عن مساس أيدى الشياطين (بأيدى سفرة) أى ١٥ كتبة من الملائكة ينتسخون الكتب من اللوح على أنه جمع سافر من السفر وهو الكتب وقيل بأيدى رسل من الملائكة يسفرون بالوحى بينه تعالى وبين الأنبياء على أنه جمع سفير من السفارة وحملهم على الأنبياء عليهم السلام بعيد فإن وظيفتهم التلقى من الوحى لا الكتب منه وإرشاد الأمة بالأمر والنهى وتعليم الشرائع والأحكام لا مجرد السفارة إليهم وكذا حملهم على القراء لقراءتهم الأسفار أو على أصحابه عليه الصلاة والسلام وقد قالوا هذه اللفظة مختصة بالملائكة لا تكاد تطلق على غيرهم وإن جاز الإطلاق بحسب اللغة والباء متعلقة بمطهرة قال القفال لما لم يمسها إلا الملائكة المطهرون أضيف التطهير إليها لطهارة من يمسها وقال القرطبى إن المراد بما فى قوله تعالى لا يمسه إلا المطهرون هؤلاء السفرة الكرام البررة .

كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦)	٨٠ عبس
قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ (١٧)	٨٠ عبس
مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ (١٨)	٨٠ عبس
مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ (١٩)	٨٠ عبس
ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ (٢٠)	٨٠ عبس
ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ (٢١)	٨٠ عبس
ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ (٢٢)	٨٠ عبس
كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ (٢٣)	٨٠ عبس

١٦ (كرام) عند الله عز وجل أو متعطفين على المؤمنين يكلمونهم ويستغفرون لهم (بررة) اتقياء وقيل
١٧ مطيعين لله تعالى من قولهم فلان يبر خالقه أى يطيعه وقيل صادقين من بر فى يمينه (قتل الإنسان) دعاء
* عليه بأشنع الدعوات وقوله تعالى (ما أكفره) تعجب من إفراطه فى الكفران وبيان لاستحقاقه
للدعاء عليه والمراد به إما من استغنى عن القرآن الكريم الذى ذكرت نعوته الجليلة الموجبة للإقبال
عليه والإيمان به وأما الجنس باعتبار انتظامه له ولأمثاله من أفراده لا باعتبار جميع أفراده وفيه مع
١٨ قصر متنه وتقارب قطريه من الأنباء عن سخط عظيم ومذمة بالغة مالا غاية وراءه وقوله تعالى (من
أى شىء خلقه) شروع فى بيان إفراطه فى الكفران بتفصيل ما أفاض عليه من مبدأ فطرته إلى منتهى
عمره من فنون النعم الموجبة بالشكر والطاعة مع إخلاله بذلك وفى الاستفهام عن مبدأ خلقه ثم بيانه
١٩ بقوله تعالى (من نطفة خلقه) تحقير له أى من أى شىء حقير مهين خلقه من نطفة مذرة خلقه (فقدره)
فهيأه لما يصلح له ويليق به من الأعضاء والأشكال أو فقدره أطواراً إلى أن تم خلقه وقوله تعالى
٢٠ (ثم السبيل يسره) منصوب بمضمر يفسره الظاهر أى ثم سهل مخرجه من البطن بأن فتح فم الرحم
وألهمه أن ينتكس أو يسر له سبيل الخير والشر ومكنه من السلوك فيهما وتعريف السبيل باللام
٢١ دون الإضافة للإشعار بعمومه (ثم أماته فأقبره) أى جعله ذا قبر يوارى فيه تكرمة له ولم يدعه
مطروحاً على وجه الأرض جرزاً للسباع والطير كسائر الحيوان يقال قبر الميت إذا دفنه وأقبره إذا
٢٢ أمر بدفنه أو مكن منه وعد الإماتة من النعم لأنها وصلة فى الجملة إلى الحياة الأبدية والنعيم المقيم (ثم
إذا شاء أنشره) أى إذا شاء إنشاره أنشره على القاعدة المستمرة فى حذف مفعول المشيئة وفى تعليق
٢٣ الإنشار بمشيئته تعالى إيذان بأن وقته غير متعين بل هو تابع لها وقرىء نشره (كلا) ردع للإنسان

فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ ٨٠ عبس

أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ٨٠ عبس

ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ ٨٠ عبس

فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ ٨٠ عبس

---

* عما هو عليه وقوله تعالى (لما يقض ما أمره) بيان لسبب الردع أى لم يقض بعد من لدن آدم عليه السلام إلى هذه الغاية مع طول المدى وامتداده ما أمره الله تعالى بأسره إذ لايخلو أحد عن تقصيرما كذا قالوا وهكذا نقل عن مجاهدوقتادة ولا ريب فى أن مساق الآيات الكريمة لبيان غاية عظم جناية الإنسان وتحقيق كفرانه المفرط المستوجب للسخط العظيم وظاهر أن ذلك لايتحقق بهذا القدر من نوع تقصير لايخلو عنه أحد من أفراده كيف لا وقد قال عليه الصلاة والسلام شيبتنى سورة هود لما فيها من قوله تعالى فاستقم كما أمرت فالوجه أن يحمل عدم القضاء على عموم النفى لاعلى نفى العموم إما على أن المحكوم عليه هو المستغنى أو هو الجنس لكن لا على الإطلاق بل على أن مصداق الحكم بعدم القضاء بعض أفراده وقد أسند إلى الكل كما فى قوله تعالى إن الإنسان لظلوم كفار للإشباع فى اللوم بحكم المجانسة على طريقة قولهم بنو فلان قتلوا فلانا والقاتل واحد منهم وإما على أن مصداقه الكل من حيث هو كل بطريق رفع الإيجاب الكلى دون السلب الكلى فالمعنى لما يقض جميع أفراده ماأمره بل أخل به بعضها بالكفر والعصيان مع أن مقتضى مافصل من فنون النعماء الشاملة للكل أن لا يتخلف عنه أحد أصلا هذا وقد قيل كلا بمعنى حقاً فيتعلق بما بعده أى حقاً لم يعمل بما أمره به (فلينظر الإنسان ٢٤ إلى طعامه) شروع فى تعداد النعم المتعلقة ببقائه بعد تفصيل النعم المتعلقة بحدوثه أى فلينظر إلى طعامه الذى عليه يدور أمر معاشه كيف دبرناه وقوله تعالى (أنا صببنا الماء صباً) أى الغيث بدل اشتمال من ٢٥ طعامه لأن الماء سبب لحدوث الطعام فهو مشتمل عليه وقرىء أنا على الاستئناف وقرىء أنى بالإمالة أى كيف صببنا إلى آخره أى صببناه صباً عجيباً (ثم شققنا الأرض) أى بالنبات (شقاً) بديعاً لائقاً ٢٦ بما يشقها من النبات صغراً وكبراً وشكلا وهيئة وحمل شقها على ما بالكراب بجعل إسناده إلى نون العظمة من قبيل إسناد الفعل إلى سببه يأباه كلمة ثم والفاء فى قوله تعالى (فأنبتنا فيها حباً) فإن الشق ٢٧ بالمعنى المذكور لاترتب بينه وبين الأمطار أصلا ولا بينه وبين إنبات الحب بلا مهلة وإنما الترتيب بين الأمطار وبين الشق المذكور وبين إنبات الحب بلا مهلة فإن المراد بالنبات مانبت من الأرض إلى أن يتكامل النمو وينعقد الحب فإن إنشقاق الأرض بالنبات لايزال يتزايد ويتسع إلى تلك المرتبة على أن مساق النظم الكريم لبيان النعم الفائضة من جنابه تعالى على وجه بديع خارج عن العادات المعهودة كماينبىء عنه تأكيد الفعلين بالمصدرين فتوسيط فعل المنعم عليه فى حصول تلك النعم مخل بالمرام

وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ ٨٠ عبس

وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ ٨٠ عبس

وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ ٨٠ عبس

وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ ٨٠ عبس

مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ٨٠ عبس

فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ ٨٠ عبس

يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ ٨٠ عبس

---

٢٨ وقوله تعالى (وعنباً) عطف على حباً وليس من لوازم العطف أن يقيد المعطوف بجميع ما قيد به المعطوف
* عليه فلا ضير فى خلو إنبات العنب عن شق الأرض (وقضباً) أى رطبة سميت بمصدر قضبه أى قطعه
٢٩ مبالغة كأنها لتكرر قطعها وتكثرة نفس القطع (وزيتوناً ونخلا) الكلام فيهما وفى أمثالهما كما فى العنب
٣٠ (وحدائق غلباً) أى عظاماً وصف به الحدائق لتكاثفها وكثرة أشجارها أو لأنها ذات أشجار غلاظ
٣١ مستعار من وصف الرقاب (وفاكهة وأباً) أى مرعى من أبه إذا أمه أى قصده لأنه يؤم وينتجع أو
من أب لكذا إذا تهيأ له لأنه متهيء للرعى أو فاكهة يابسة تؤب للشتاء وعن الصديق رضى الله عنه
أنه سئل عن الأب فقال أى سماء تظلنى وأى أرض تقلنى إذا قلت فى كتاب الله مالا علم لى به وعن
عمر رضى الله عنه أنه قرأ هذه الآية فقال كل هذا قد عرفنا فما الأب ثم رفض عصا كانت بيده وقال
هذا لعمر الله التكلف وما عليك يا ابن أم عمر أن لاتدرى ما الأب ثم قال اتبعوا ما تبين لكم من
٣٢ هذا الكتاب ومالا فدعوه (متاعا لكم ولأنعامكم) إما مفعول له أى فعل ذلك تمتيعاً لكم ولمواشيكم
فإن بعض النعم المعدودة طعام لهم وبعضها علف لدوابهم والالتفات لتكميل الامتنان وإما مصدر
مؤكد لفعله المضمر بحذف الزوائد أى متعكم بذلك متاعا أو لفعل مترتب عليه أى متعكم بذلك فتمتعتم
متاعا أى تمتعاً كما مر غير مرة أو مصدر من غير لفظه فإن ماذكر من الأفعال الثلاثة فى معنى التمتيع
٣٣ (فإذا جاءت الصاخة) شروع فى بيان أحوال معادهم إثر بيان مبدأ خلقهم ومعاشهم والفاء للدلالة
على ترتب مابعدها على ماقبلها من فنون النعم عن قريب كما يشعر لفظ المتاع بسرعة زوالها وقرب
اضمحلالها والصاخة هى الداهية العظيمة التى يصخ لها الخلائق أى يصيخون لها من صخ لحديثه إذا
أصاخ له واستمع وصفت بها النفخة الثانية لأن الناس يصيخون لها وقيل هى الصيحة التى تصخ الآذان
٣٤ أى تصمها لشدة وقعها وقيل هى مأخوذة من صخه بالحجر أى صكه وقوله تعالى (يوم يفر المرء من

وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ ٨٠ عبس

وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ ٨٠ عبس

لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ٨٠ عبس

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ٨٠ عبس

ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ ٨٠ عبس

وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ ٨٠ عبس

تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ ٨٠ عبس

٣٥، ٣٦ أخيه) (وأمه وأبيه) (وصاحبته وبنيه) إما منصوب بأعنى تفسيراً للصاخة أو بدل منها مبنى على الفتح بالإضافة إلى الفعل على رأى الكوفيين وقيل بدل من إذا جاءت كما مر فى قوله تعالى يوم يتذكر الخ أى يعرض عنهم ولا يصاحبهم ولا يسأل عن حالهم كما فى الدنيا لاشتغاله بحال نفسه وأما تعليل ذلك بعلمه بأنهم لايغنون عنه شيئاً أو بالحذر من مطالبتهم بالتبعات فيأباه قوله تعالى (لكل امرىء ٣٧ منهم يومئذ شأن يغنيه) فإنه استئناف وارد لبيان سبب الفرار أى لكل واحد من المذكورين شغل شاغل وخطب هائل يكفيه فى الاهتمام به وأما الفرار حذار من مطالبتهم أو بغضاً لهم كما يروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه يفر قابيل من أخيه هابيل ويفر النبى صلى الله عليه وسلم من أمه ويفر إبراهيم عليه السلام من أبيه ونوح عليه السلام من ابنه ولوط عليه السلام من امرأته فليس من قبيل هذا الفرار وكذا مايروى أن الرجل يفر من أصحابه وأقربائه لئلا يروه على ماهو عليه من سوء الحال وقرىء يعنيه بالياء المفتوحة والعين المهملة أى يهمه من عناه الأمر إذا أهمه أى أوقعه فى الهم ومنه من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه لامن عناه إذا قصده كما قيل وقوله تعالى (وجوه يومئذ ٣٨ مسفرة) بيان لمآل أمر المذكورين وانقسامهم إلى السعداء والأشقياء بعد ذكر وقوعهم فى داهية دهياء فوجوه مبتدأ وإن كانت نكرة لكونها فى حيز التنويع ومسفرة خبره ويومئذ متعلق به أى مضيئة متهللة من أسفر الصبح إذا أضاء وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن ذلك من قيام الليل وفى الحديث من كثر صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار وعن الضحاك من آثار الوضوء وقيل من طول ما أغبرت فى سبيل الله (ضاحكة مستبشرة) بما تشاهد من النعيم المقيم والبهجة الدائمة (ووجوه ٣٩، ٤٠ يومئذ عليها غبرة) أى غبار وكدورة (ترهقها) أى تعلوها وتغشاها (قترة) أى سواد وظلمة . ٤١

أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

سورة عبس

وتسمى سورة الصاخة وسورة السفرة وسميت في غير كتاب سورة الاعمى وهي مكية بلا خلاف وآيها اثنتان واربعون في الحجازي والكوفي واحدى واربعون في البصري وأربعون في الشامي والمدني الاول ولما ذكر سبحانه فيما قبلها انما أنت منذر من يخشاها ذكر عز وجل في هذه من ينفعه الانذار ومن لم ينفعه فقال عز من قائل

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴾ الخ روى أن ابن أم مكتوم وهو ابن خال خديجة واسمه عمرو بن قيس بن زائدة بن جندب بن هرم بن رواحة بن حجر بن معيص بن عامر بن لؤي القرشي وقيل عبد الله بن عمرو وقيل عبد الله بن شريح بن مالك بن أبي ربيعة الفهري والاول أكثر وأشهر كما في جامع الاصول وأم مكتوم كنية أمه واسمها عاتكة بنت عبد الله المخزومية وغلط الزمخشري في جعلها في الكشاف جدته وكان أعمى وعمي بعد نور وقيل ولد أعمى ولذا قيل لامه أم مكتوم اتى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وعنده صناديد قريش عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل والعباس بن عبد المطلب وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة يناجيهم ويدعوهم الى الاسلام رجاء أن يسلم باسلامهم غيرهم فقال يارسول الله أقرئني وعلمني مما علمك الله تعالى وكرر ذلك ولم يعلم تشاغله بالقوم فكره رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قطعه لكلامه وعبس وأعرض عنه فنزلت فكان رسول الله عليه الصلاة والسلام يكرمه ويقول اذا رآه مرحبا بمن عاتبني فيه ربي ويقول هل لك من حاجة واستخلفه صلى الله تعالى عليه وسلم على المدينة فكان يصلي بالناس ثلاث عشرة مرة كما رواه ابن عبد البر في الاستيعاب عن أهل العلم بالسير ثم استخلف بعده أبا لبابة وهو من المهاجرين الاولين هاجر على الصحيح قبل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ووهم القرطبي في زعمه أنه مدني وأنه لم يجتمع بالصناديد المذكورين من أهل مكة وموته قيل بالقادسية شهيدا يوم فتح المدائن أيام عمر رضي الله تعالى عنه ورآه أنس يومئذ وعليه درع وله راية سوداء وقيل رجع منها الى المدينة فمات بها رضي الله تعالى عنه وضمير عبس وما بعده للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وفي التعبير عنه عليه الصلاة والسلام بضمير الغيبة اجلال له صلى الله تعالى عليه وسلم لايهام ان من صدر عنه ذلك غيره لانه لا يصدر عنه صلى الله تعالى عليه وسلم مثله كما أن في التعبير عنه صلى الله تعالى عليه وسلم بضمير الخطاب في قوله سبحانه ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ﴾ ذلك لما فيه من الايناس بعد الايحاش والاقبال بعد الاعراض والتعبير عن ابن أم مكتوم بالاعمى للاشعار بعذره في الاقدام على قطع كلام الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وتشاغله بالقوم وقيل ان الغيبة أولا والخطاب ثانيا لزيادة الانكار وذلك كمن يشكو الى الناس جانيا جنى عليه ثم يقبل على الجاني اذا حمي على الشكاية مواجها بالتوبيخ والزام الحجة وفي ذكر الاعمى نحو من ذلك لانه وصف يناسب الاقبال عليه والتعطف وفيه أيضا دفع ايهام الاختصاص بالاعمى المعين وايماء الى أن كل

ضعيف يستحق الاقبال من مثله على اسلوب لايقضى القاضي وهو غضبان وأن بتقدير حرف الجرأعنى لام التعليل وهو معمول لاول الفعلين على مختار الكوفيين وثانيهما على مختار البصريين وكليهما معا على مذهب الفراء نعم هو بحسب المعنى علة لهما بلا خلاف أى عبس لان جاءه الاعمى وأعرض لذلك وقرأ زيد بن على عبس بتشديد الباء للمبالغة لا للتعدية وهو والحسن وأبو عمران الجونى و عيسى آن بهمزة ومدة بعدها وبعض القراء بهمزتين محققتين والهمزة في القراءتين للاستفهام الانكارى ويوقف على تولى والمعنى الا ان جاءه الاعمى فعل ذلك وضمير لعله للاعمى والظاهر ان الجملة متعلقة بفعل الدراية على وجه سد مسد مفعوله أى أى شيء يجعلك داريا بحال هذا الاعمى لعله يتطهر بما يتلقن من الشرائع من بعض أوضار الاثم ﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ ﴾ أى يتعظ ﴿ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴾ أى ذكراك وموعظتك والمعنى انك لاتدرى ما هو مترقب منه من تزك أو تذكر ولو دريت لما كان الذى كان والغرض نفى دراية أنه يزكى أو يذكر والترجى راجع الى الاعمى أو الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على ماقيل دلالة على ان رجاء تزكيه أو كونه ممن يرجى منه ذلك كاف في الامتناع من العبوس والاعراض كيف وقد كان استركاؤه محققا ولما هضم من حقه في تعلق الرجاء به لا التحقق اعتبر متعلق التزكى بعض الاوضار ترشيحا لذلك وفيه اظهار مايقتضى مقام العظمة ههنا من اطلاق التزكى وحمله على ما ينطلق عليه الاسم لا الكامل وقال بعضهم متعلق الدراية محذوف أى مايدريك أمره وعاقبة حاله ويطلعك على ذلك وقوله سبحانه لعله الخ استئناف وارد لبيان مايلوح به ماقبله فانه مع اشعاره بأن له شأنا منافيا للاعراض عنه خارجا عن دراية الغير وادرائه مؤذن بانه تعالى يدريه ذلك واعتبر في التزكى الكمال فقال أى لعله يتطهر بما يقتبس منك من أوضار الاثم بالكلية أو يتذكر فتنفعه موعظتك ان لم تبلغ درجة التزكى التام ولعل الاول أبعد مغزى وقدم التزكى على التذكر لتقدم التخلية على التحلية وخص بعضهم الثاني بما اذا كان ما يتعلمه من النوافل والاول بما اذا كان سوى ذلك وهو كما ترى وفي الآية تعريض واشعار بأن من تصدى صلى الله تعالى عليه وسلم لتزكيتهم وتذكيرهم من الكفرة لا يرجى منهم التزكى والتذكر أصلا فهى كقولك لمن يقرر مسئلة لمن لا يفهمها وعنده آخر قابل لفهمها لعل هذا يفهم ما تقرر فانه يشعر بانه قصد تفهيم غيره وليس بأهل لما قصده وقيل جاء التعريض من جهة أن المحدث عنه كان متزكيا من الآثام متعظا وقيل ضمير لعله للكافر والترجى راجع الى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أى انك طمعت في تزكيه بالاسلام وتذكره بالموعظة ولذلك أعرضت عن غيره فمايدريك ان ما طمعت فيه كائن وضعف بعدم تقدم ذكر الكافر وبافراد الضمير والظاهر جمعه أى بناء على المشهور في ان من تشاغل عليه الصلاة والسلام به كان جمعا وجاء في بعض الروايات انه كان واحدا وقرأ الاعرج وعاصم في رواية أو يذكر بسكون الذال وضم الكاف وقرأ الاكثر فتنفعه بالرفع عطفا على يذكر وبالنصب قرأ عاصم في المشهور والاعرج وأبو حيوة وابن أبى عبلة والزعفرانى وهو عند البصريين باضمار أن بعد الفاء وعند الكوفيين في جواب الترجى وهو كالتمنى عندهم ينصب في جوابه وفي الكشف أن النصب يؤيد رجوع ضمير لعله على الكافر لاشمام الترجى معنى التمنى لبعد المرجو من الحصول أى بالنظر الى المجموع اذ قد حصل من العباس وعلى السابق وجهه ترشيح معنى الهضم فتذكر ﴿ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ﴾ أى عن الايمان وعما عندك من العلوم والمعارف التى ينطوى عليها القرآن وفي معناه ماقيل استغنى بكفره عما يهديه وقيل اى وأما من كان ذاثروة وغنى وتعقب بأنه لو كان كذلك لذكر الفقر فى مقابله وأجيب بماستعمله ان شاء الله تعالى ﴿ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ﴾ أى تتصدى وتتعرض بالاقبال عليه والاهتمام بارشاده واستصلاحه وفيه مزيد تنفير له صلى الله تعالى عليه وسلم عن مصاحبتهم

فان الاقبال على المدبر مخل بالمروءة ومن هنا قيل

لا أبتغي وصل من لا يبتغي صلتي * ولا ألين لمن لا يبتغي ليني
والله لو كرهت كفي مصاحبتي * يوما لقلت لها عن صحبتي بيني

وقرأ الحرميان تصدى بتشديد الصاد على أن الاصل تتصدى فقلبت التاء صادا وأدغمت وقرأ أبوجعفر تصدى بضم التاء وتخفيف الصاد مبنيا للمفعول أي تعرض ومعناه يدعوك الى التصدي والتعرض له داع من الحرص ومزيد الرغبة في اسلامه . وأصل تصدى على ما في البحر تصدد من الصدد وهو ما استقبلك وصار قبالتك يقال داري صدد داره أي قبالتها وقيل من الصدى وهو العطش وقيل من الصدى وهو الصوت المعروف ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى ﴾ وليس عليك بأس في أن لا يتزكى بالاسلام حتى يبعثك الحرص على اسلامه الى الاعراض عمن أسلم فما نافية والجملة حال من ضمير تصدى والممنوع عنه في الحقيقة الاعراض عمن أسلم لا الاقبال على غيره والاهتمام بأمره حرصا على اسلامه ويجوز أن تكون ما استفهامية للانكار أي أي شيء عليك في أن لا يتزكى ومآله النفي أيضا ﴿ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ﴾ أي حال كونه مسرعاً طالبا لما عندك من أحكام الرشد وخصال الخير ﴿ وَهُوَ يَخْشَى ﴾ أي يخاف الله تعالى وقيل أذية الكفار في الاتيان وقيل العثار والكبوة اذ لم يكن معه قائد والجملة حال من فاعل يسعى كما أن جملة يسعى حال من فاعل جاءك واستظهر بعض الافاضل أن النظم الجليل من الاحتباك ذكر الغنى أولا للدلالة على الفقر ثانيا والمجيء والخشية ثانيا للدلالة على ضدها أولا وكأنه حمل استغنى على ما نقل أخيراً واستشعر ما قيل عليه فاحتاج لدفعه الى هذا التكلف وعدم الاحتياج اليه على ما نقلناه في غاية الظهور ﴿ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴾ تتشاغل يقال لهي عنه كرضي ورمى والتهى وتلهى. وفي تقديم ضميره عليه الصلاة والسلام على الفعلين تنبيه على أن مناط الانكار خصوصيته عليه الصلاة والسلام وتقديم له وعنه قيل للتعريض بالاهتمام بمضمونهما وقيل للعناية لانهما منشأ العتاب وقيل للفاصلة وقيل للحصر وذكر التصدي في المستغنى دون الاشتغال به وهو المقابل للتلهي عن المسرع الخاشي والتلهي عنه دون عدم التصدي له وهو المقابل للتصدي لذلك قيل للاشعار بأن العتاب للاهتمام بالاول لا للاشتغال به اذ الاشتغال بالكفار غير ممنوع وعلى الاشتغال عن الثاني لا لانه لا اهتمام له صلى الله تعالى عليه وسلم في أمره اذ الاهتمام غير واجب لانه عليه الصلاة والسلام ليس الا منذراً وقرأ البزي عن ابن كثير عنهو تلهى بادغام تاء المضارعة في تاء تفعل وأبو جعفر تلهى بضم التاء مبنيا للمفعول أي يشغلك الحرص على دعاء الكافر الاسلام وطلحة تتلهى بتاءين وعنه بتاء واحدة وسكون اللام ﴿ كَلَّا ﴾ مبالغة في ارشاده صلى الله تعالى عليه وسلم الى عدم معاودة ما عوتب عليه صلى الله تعالى عليه وسلم وقد نزل ذلك كما في خبر رواه ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس بعد أن قضى عليه الصلاة والسلام نجواه وذهب الى أهله وجوز كونه ارشادا بليغا الى ترك المعاتب عليه عليه الصلاة والسلام بناء على أن النزول في أثناء ذلك وقبل انقضائه وفي بعض الآثار أنه صلى الله تعالى عليه وسلم بعد ما عبس في وجه فقير ولا تصدى لغني وتأدب الناس بذلك أدباً حسنا فقد روي عن سفيان الثوري أن الفقراء كانوا في مجلسه أمراء والضمير في قوله تعالى ﴿ إِنَّهَا ﴾ للقرآن العظيم والتأنيث لتأنيث الخبر أعني قوله سبحانه ﴿ تَذْكِرَةٌ ﴾ أي موعظة يجب أن يتعظ بها ويعمل بموجبها وكذا الضمير في قوله عز وجل ﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ والجملة المؤكدة تعليل لما أفادته كلا ببيان علو رتبة القرآن العظيم الذي استغنى عنه من تصدى عليه الصلاة والسلام له

والجملة الثانية اعتراض جيء به للترغيب في القرآن والحث على حفظه أو الاتعاظ به واقتران الجملة المعترض بها بالفاء قد صرح به ابن مالك في التسهيل من غير نقل اختلاف فيه وكلام الزمخشري في الكشاف عند الكلام على قوله تعالى فاسألوا أهل الذكر نص في ذلك نعم قيل إنه قيل له فمن شاء ذكره اعتراض فقال لا لان الاعتراض شرطه أن يكون بالواو أو بدونه فاما بالفاء فلا أى وهو استطراد لكن تعقب بأن النقل لمنافاته ذلك ليس بثبت ويمكن أن يكون في القوم من ينكر ذلك فوافقه تارة وخالفه أخرى وما ألطف قول السعد في التلويح الاعتراض يكون بالواو والفاء ☆ فاعلم فعلم المرء ينفعه ☆ هذا وقيل الضمير الاول للسورة أو للآيات السابقة والثاني للتذكرة والتذكير لانها بمعنى الذكر والوعظ أو لمرجع الاول والتذكير باعتبار كون ذلك قرآنا ورجح بعدم ارتكاب التأويل قبل الاحتياج إليه وتعقب بأنه ليس بذاك فان السورة أو الآيات وان كانت متصفة بما سيأتي ان شاء الله تعالى من الصفات الشريفة لكنها ليست مما ألقى على من استغنى عنه واستحق بسبب ذلك ما سيأتي ان شاء الله تعالى من الدعاء عليه والتعجب من كفره المفرط لنزولها بعد الحادثة وجوز كون الضميرين للمعاتبة الواقعة وتذكير الثاني لكونها عتابا وفيه أنه يأباه الوصف بالصفات الآتية وان كان باعتبار أن العتاب وقع بالآيات المذكورة قبل وهي متصفة بما ذكر جاء ما سمعت آنفا وقيل لك أن تجعلهما للدعوة الى الاسلام وتذكير الثاني لكونها دعاء وهذا على ما فيه مما يأباه المقام وقوله تعالى (فى صُحُفٍ) متعلق بمضمر هو صفة لتذكرة أو خبر ثان لان أى كائنة أو مثبتة في صحف والمراد بها الصحف المنتسخة من اللوح المحفوظ وعن ابن عباس هى اللوح نفسه وهو غير ظاهر وقيل الصحف المنزلة على الانبياء عليهم السلام كقوله تعالى وانه لفى زبر الاولين وقيل صحف المسلمين على أنه اخبار بالغيب فان القرآن بمكة لم يكن في الصحف وانما كان متفرقا في الدفاف والجريد ونحوهما واول ما جمع في صحيفة في عهد أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه وهو كما ترى (مُكَرَّمَةٍ) عند الله عز وجل (مَرْفُوعَةٍ) أى في السماء السابعة كما قال يحيى بن سلام أو مرفوعة القدر كما قيل (مُطَهَّرَةٍ) منزهة عن مساس أيدى الشياطين أو عن كل دنس على ماروى عن الحسن وقيل عن الشبه والتناقض والاول قيل مأخوذ من مقابلته بقوله تعالى (بِأَيْدِي سَفَرَةٍ) أى كتبة من الملائكة عليهم السلام كما قال مجاهد وجماعة فانهم ينسخون الكتب من اللوح وهو جمع سافر أى كاتب والمصدر السفر كالضرب وعن ابن عباس هم الملائكة المتوسطون بين الله تعالى وأنبيائه عليهم السلام على أنه جمع سافر أيضا بمعنى سفير أى رسول وواسطة والمشهور في مصدره بهذا المعنى السفارة بكسر السين وفتحها وجاء فيه السفر أيضا كما في القاموس وقيل هم الانبياء عليهم السلام لانهم سفراء بين الله تعالى والامة أو لانهم يكتبون الوحى ولا يخفى بعده فان الانبياء عليهم السلام وظيفتهم التلقى من الوحى لا الكتب لما يوحى على أن خاتمهم صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن يكتب القرآن بل لم يكتب أصلا على ماهو الشائع وقد مر تحقيقه وكذا وظيفتهم ارشاد الامة بالامر والنهى وتعليم الشرائع والاحكام لا مجرد السفارة اليهم وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن وهب بن منبه أنهم أصحاب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم قيل لانهم سفراء ووسائط بينه عليه الصلاة والسلام وبين سائر الامة وقيل لان بعضهم يسفر الى بعض في الخير والتعليم والتعلم وفي رواية عن قتادة انهم القراء وكلا القولين ليس بالمعول عليه وقد قالوا هذه اللفظة مختصة بالملائكة عليهم السلام لاتكاد تطلق على غيرهم وان جاز الاطلاق بحسب اللغة ومادتها موضوعة بجميع تراكيبها لما يتضمن الكشف كسفرت المرأة اذا كشفت القناع عن وجهها والباء قيل متعلقة بمطهرة

وقيل بمضمر هو صفة أخرى لصحف ﴿ كِرَامٍ ﴾ أى اعزاء على الله تعالى معظمين عنده عز وجل فهو من الكرامة بمعنى التوقير أو متعطفين على المؤمنين يستغفرون لهم ويرشدونهم الى مافيه الخير بالالهام وينزلون بما فيه تكميلهم من الشرائع فهو من الكرم ضد اللؤم ﴿ بَرَرَةٍ ﴾ أى اتقياء وقيل مطيعين لله تعالى من قولهم فلان يبر خالقه أى يطيعه وقيل صادقين من بر في يمينه وهو جمع بر لا غير وأما ابرار فيكون جمع بر كرب وارباب وجمع بار كصاحب وأصحاب وان منعه بعض النحاة لعدم اطراده واختص على ماقيل الجمع الاول بالملائكة والثانى بالآدميين في القرآن ولسان الشارع صلى الله تعالى عليه وسلم وكان ذلك لان الابرار من صيغ القلة دون البررة ومتقو الملائكة اكثر من متقى الآدميين فناسب استعمال صيغة القلة وان لم ترد حقيقتها في الآدميين دونهم وقال الراغب خص البررة بهم من حيث انه ابلغ من ابرار فانه جمع بر وابرار جمع بار وبر أبلغ من بار كما ان عدلا ابلغ من عادل وكأنه عنى ان الوصف ببر أبلغ لكونه من قبيل الوصف بالمصدر من الوصف ببار لكن قد سمعت ان ابرارا يكون جمع بر كما يكون جمع بار وأيضا في كون الملائكة أحق بالوصف بالابلغ بالنسبة الى الآدميين مطلقا بحث وقيل أن الابرار أبلغ من البررة اذ هو جمع بار والبررة جمع بر وبار أبلغ منه لزيادة بنيته ولما كانت صفات الكمال فى بنى آدم تكون كاملة وناقصة وصفوا بالابرار اشارة الى مدحهم بالكل الاوصاف وأما الملائكة فصفات الكمال فيهم لا تكون ناقصة فوصفوا بالبررة لانه يدل على أصل الوصف بقطع النظر عن المبالغة فيه لعدم احتياجهم لذلك واشارة لفضيلة البشر لما في كونهم ابرارا من المجاهدة وعصيان داعى الجبلة وفيه مالا يخفى ومن استعمال البررة في الملائكة ما أخرجه أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الذى يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة والذى يقرأه وهو عليه شاق له اجران ﴿ قُتِلَ الانْسَانُ ﴾ دعاء عليه باشنع الدعوات وأفظعها ﴿ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ تعجيب من افراطه في الكفران وبيان لاستحقاقه الدعاء عليه والمراد به إما من استغنى عن القرآن الكريم الذى ذكرت نعوته الجليلة الموجبة للاقبال عليه والايمان به وإما الجنس باعتبار انتظامه له ولامثاله من افراده ورجح هذا بأن الآية نزلت على ماأخرج ابن المنذر عن عكرمة فى عتبة بن أبى لهب غاضب اباه فأسلم ثم استصلحه أبوه واعطاه مالا وجهزه الى الشام فبعث الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم انه كافر برب النجم اذا هوى فقال صلى الله تعالى عليه وسلم اللهم ابعث عليه كلبك حتى يفترسه فلما كان في اثناء الطريق ذكر الدعاء فجعل لمن معه ألف دينار أن أصبح حيا فجعلوه وسط الرفقة والمتاع حوله فأقبل أسد الى الرحال ووثب فاذا هو فوقه فمزقه فكان أبوه يندبه ويبكى عليه ويقول ماقال محمد صلى الله تعالى عليه وسلم شيئاً قط الا كان وسيأتى ان شاء الله تعالى خبر في هذه القصة أطول من هذا الخبر فلا تغفل ثم ان هذا كلام فى غاية الايجاز وقد قال جار الله لا ترى أسلوبا اغلظ منه ولا ادل على سخط ولا أبعد شوطا في المذمة مع تقارب طرفيه ولا أجمع للائمة على قصر متنه حيث اشتمل على ما سمعت من الدعاء مرادا به اذ لا يتصور منه تعالى لازمه وعلى التعجب المراد به لاستحالته عليه سبحانه التعجيب لكل سامع وقال الامام ان الجملة الاولى تدل على استحقاقهم اعظم انواع العقاب عرفا والثانية تنبيه على أنهم اتصفوا بأعظم انواع القبائح والمنكرات شرعا ولم يسمع ذلك قبل نزول القرآن ومانسب الى امرىء القيس من قوله

يتمنى المرء في الصيف الشتا ✡ فاذا جاء الشتا أنكره
فهو لا يرضى بحال واحد ✡ قتل الانسان ما اكفره

لا أصل له ومن له ادنى معرفة بكلام العرب لا يجهل ان قائل ذلك مولد اراد الاقتباس لا جاهلي وجوز بعضهم ان يكون قوله تعالى قتل الانسان خبرا عن أنه سيقتل الكفار بانزال آية القتال وعبر بالماضي مبالغة في أنه سيتحقق ذلك وليس بشيء ونحوه ما قيل أن ما استفهامية أي أي شيء أكفره أي جعله كافراً بمعنى لا شيء يسوغ له أن يكفر وقوله تعالى ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ شروع في بيان افراطه في الكفران بتفصيل ما أفاض عز وجل عليه من مبدأ فطرته الى منتهى عمره من فنون النعم الموجبة لان تقابل بالشكر والطاعة مع اخلاله بذلك والاستفهام قيل للتحقير وذكر الجواب أعني قوله تعالى ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ ﴾ لا يقتضي أنه حقيقي لانه ليس بجواب في الحقيقة بل على صورته وهو بدل من قوله سبحانه من أي شيء خلقه وجوز أن يكون للتقرير والتحقير مستفاد من شيء المنكر وقيل التحقير يفهم أيضا من قوله سبحانه من نطفة الخ أي من أي شيء حقير مهين خلقه من نطفة مذرة خلقه ﴿ فَقَدَّرَهُ ﴾ فهيأه لما يصلح له ويليق به من الاعضاء والاشكال فالتقدير بمعنى التهيئة لما يصلح ولذا ساغ عطفه بالفاء دون التسوية لان الخلق بمعنى التقدير بهذا المعنى أو يتضمنه فلا تصلح الفاء وجوز أن يكون هذا تفصيلا لما أجمل أولا في قوله تعالى من أي شيء خلقه أي فقدره أطوارا الى أن أتم خلقه ﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾ أي ثم سهل مخرجه من البطن كما جاء في رواية عن ابن عباس بان فتح فم الرحم ومدد الاعصاب في طريقه ونكس رأسه لاسفل بعد ان كان في جهة العلو وعن ابن عباس أيضا وقتادة وأبي صالح والسدي المراد بالسبيل سبيل النظر القويم المؤدي الى الايمان وتيسيره له هو هبة العقل وتمكينه من النظر وقال مجاهد والحسن وعطاء وهو رواية عن الحبر أيضا هو سبيل الهدى والضلال أي سهل له الطريق الذي يريد سلوكه من طريق الخير والهدى وطريق الشر والضلال بان أقدره عز وجل على كل ومكنه منه والاقدار على المراد نعمة ظاهرة بقطع النظر عن خيريته وشريته فلا يرد عليه انه كيف يعد تسهيل طريق الشر والضلال من النعم وقيل انه عد منها لانه لو لم يكن مسهلا كسبيل الخير لم يستحق المدح والثواب بالاعراض عنه وتركه وهو مبني على القول بان ترك المحرم كالزنا مع عدم القدرة عليه لعنة مثلا لا يثاب عليه وقيل يثاب ويمدح عليه اذا قدر التارك في نفسه انه لو تمكن لم يفعل وقال بعضهم العجز عن الشر نعمة وأنشد

جكونه شكر ابن نعمت كزارم ✽ كه زورمردم أزارى ندارم

ونصب السبيل بمضمر يفسره الظاهر وفيه مبالغة في التيسير وتمكين في النفس بسبب التكرير قيل وفي تعريفه باللام دون الاضافة اشعار بعمومه فانه لو قيل سبيله أوهم انه على التوزيع وان لكل انسان سبيلا يخصه وخص بعضهم هذه النكتة بالمعنى الاخير للسبيل فتدبر وعلى هذا المعنى قيل ان فيه ايماء الى ان الدنيا طريق والمقصد غيرها لما أشعرت به الآية من ان الميسر سبيل المكلفين الذي يترتب عليه الثواب والعقاب وفيه خفاء وأياما كان فالضمير المنصوب في يسره للسبيل وليس في التفكيك لبس حتى يكون نقصا في البيان ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ أي جعله ذا قبر توارى فيه جيفته تكرمة له ولم يجعله مطروحا على الارض يستقذره من يراه وتقتسمه السباع والطير اذا ظفرت به كسائر الحيوان والمراد من جعله اذا قبر أمره عز وجل بدفنه يقال قبر الميت اذا دفنه بيده ومنه قول الاعشى

لو أسندت ميتا الى نحرها ✡ عاش ولم ينقل الى قابر

واقبره اذا أمر بدفنه أو مكن منه ففي الآية اشارة الى مشروعية دفن الانسان وهي مما لا خلاف فيه واما دفن غيره من الحيوانات فقيل هو مباح لا مكروه وقد يطلب لامر مشروع يقتضيه كدفع أذى جيفته مثلا وعد الاماتة

من النعم لانها وصلة في الجملة الى الحياة الابدية والنعيم المقيم وخصت هذه النعم بالذكر لما فيها من ذكر أحوال الانسان من ابتدائه الى انتهائه وما تتضمن من النعم التى هى محض فضل من الله تعالى فاذا تأمل ذلك العاقل علم قبح الكفر وكفران نعم الرب سبحانه وتعالى فشكره جل وعلا بالايمان والطاعة ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴾ أى اذا شاء انشاره أنشره على القاعدة المعروفة في حذف مفعول المشيئة وفي تعليق الانشار بمشيئته تعالى ايذان بان وقته غير معين أصلا بل هو تابع لها وهذا بخلاف الاماتة فان وقتها معين اجمالا على ما هو المعهود في الاعمار الطبيعية وكذا الحال في وقت الاقبار بل هو أظهر في ذلك وقرأ شعيب بن الحجاب كما في كتاب اللوامح وابن أبى حمزة كما في تفسير بن عطية نشره بدون همزة وهما لغتان في الاحياء وقوله تعالى ﴿ كَلَّا ﴾ ردع للانسان عما هو عليه من كفران النعم البالغ نهايته وقوله سبحانه ﴿ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ بيان لسبب الردع ولما نافية جازمة ونفيها غير منقطع وما موصولة وضمير أمره اما للانسان كالمستتر في يقض والعائد الى الموصول محذوف أى به أو للموصول على الحذف والايصال والعائد الى الانسان محذوف أى اياه قيل والثانى أحسن لان حذف المفعول أهون من حذف العائد الى الموصول والمراد بما أمره جميع ما أمره والمعنى على ما قال غير واحد لم يقض من أول زمان تكليفه الى زمان أماتته واقباره أو من لدن آدم عليه السلام الى هذه الغاية مع طول المدى وامتداده جميع ما أمره فلم يخرج من جميع أوامره تعالى اذ لا يخلو أحد عن تقصير ما ونقل هذا عن مجاهد وقتادة وفيه حمل عدم القضاء على نفى العموم وتعقب بانه لا ريب في أن مساق الآيات الكريمة لبيان غاية عظم جناية الانسان وتحقيق كفرانه المفرط المستوجب للسخط العظيم وظاهر أن ذلك لا يتحقق بهذا القدر من نوع تقصير لا يخلو عنه احد من افراده واختير أن يحمل عدم القضاء على عموم النفى أما على أن المحكوم عليه هو الانسان المستغنى أو هو الجنس لكن لا على الاطلاق بل على ان مصداق الحكم بعدم القضاء بعض أفراده وقد أسند الى الكل كما في قوله تعالى ان الانسان لظلوم كفار وأما على أن مصداقه الكل من حيث هو كل بطريق رفع الايجاب الكلى دون السلب الكلى فالمعنى لما يقض جميع أفراده ما أمره بل أخل به بعضها بالكفر والعصيان مع أن مقتضى ما فصل من فنون النعماء الشاملة للكل أن لا يتخلف عنه أحد وعن الحسن ان كلا بمعنى حقا فيتعلق بما بعده أى حقا لم يعمل بما أمره به وقال ابن فورك الضمير في يقض لله تعالى أى لم يقض الله تعالى لهذا الكافر ما أمره به من الايمان بل أمره اقامة للحجة عليه بما لم يقض له ولا يخفى بعده والظاهر عليه أن كلا بمعنى حقا أيضا وقوله سبحانه ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾ على معنى اذا كان هذا حال الانسان وهو أنه الى الآن لم يقض ما أمره مع أن مقتضى النعم السابقة القضاء فلينظر الى طعامه الخ لعله يقضى وفي الحواشى الشهابية لا يخفى ما في قوله تعالى لما يقض ما أمره من كمال تهييج الانسان وتحريضه على امتثال ما يعقبه من الامر بالنظر وتفريع الامر عليه مبنى على أن الائتمار كما ينبغى ان يتيسر بعد الارتداع عما هو عليه والظاهر أن المراد بالانسان هنا نحو ما أريد به في قوله تعالى قتل الانسان ولما جوز صاحب الحواشى المذكورة حمل عدم القضاء على السلب الكلى وجعل الكلام في الانسان المبالغ فى الكفر قال فالمراد بضمير يتقضر غير الانسان الذى أمر بالنظر فانه عام فلذا أظهر وتضمن ما مر ذكر النعم الذاتية أى ما يتعلق بذات الانسان من الذات نفسها ولوازمها وهذا ذكر النعم الخارجية المقابلة لذلك وقيل الاولى نعم خاصة والثانية نعم عامة وقيل تلك نعم متعلقة بالحدوث وهذه نعم متعلقة بالبقاء وفيه نظر والظاهر أن المراد بالطعام المطعوم بانواعه واقتصر عليه ولم يذكر المشروب لان آثار القدرة فيه أكثر من آثارها في المشروب واعتبار التغليب لا يخفى ما فيه وقوله تعالى ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ ﴾ بدل منه بدل اشتمال فانه لكونه من أسباب

تكونه كالمشتمل عليه والعائد محذوف أى صببنا له وجوز كونه بدل كل من كل على معنى فلينظر الانسان الى انعامنا في طعامه انا صببنا الخ وهو كما ترى وأياما كان فالمقصود بالنظر هو البدل وبذلك يضعف ماروى عن أبى وابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم أن المعنى فلينظر إلى طعامه اذا صار رجيعا ليتأمل عاقبة الدنيا وما تهالك عليه أهلها ولعمرى ان هذا بعيد الارادة عن السياق ولاأظن انه وقع على صحة روايته عن هؤلاء الاجلة الانفاق وظاهر الصب يقتضى تخصيص الماء بالغيث وهو المروى عن ابن عباس وجوز بعضهم ارادة الاعم وقال ان في كل ماء صبا من الله تعالى بخلق أسبابه على اصول النباتات وأنت تعلم أن ايصال الماء الى أصول النباتات يبعد تسميته صبا وتأكيد الجملة للاعتناء بمضمونها مع كونها مظنة لانكار القاصر لعدم الاحساس بفعل من الله تعالى وانما يعرف الاستناد اليه عز وجل بالنظر الصحيح وقرأ الاكثر إنا بالكسر على الاستئناف البيانى كانه لما أمر سبحانه بالنظر الى مارزقه جل وعلا من أنواع المأكولات قيل كيف أحدث ذلك وأوجد بعد ان لم يكن فقيل انا صببنا الخ وقرأ الامام الحسين بن أمير المؤمنين على كرم الله تعالى وجههما ورضى سبحانه عنهما انى صببنا بفتح الهمزة والامالة على معنى فلينظر الانسان كيف صببنا الماء ﴿صَبًّا﴾ عجيبا ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ﴾ أى بالنبات كما قال ابن عباس ﴿شَقًّا﴾ بديعا لائقا بما يشقها من النبات صغراً وكبراً وشكلا وهيئة وقيل شقها بالكراب واسناده الى ضميره تعالى مجاز من باب الاسناد الى السبب وان كان الله تعالى عز وجل هو الموجد حقيقة فقد تبين في موضعه أن اسناد الفعل حقيقة لمن قام به لا لمن صدر عنه ايجادا ولهذا يشتق اسم الفاعل له وتعقب بانه يأباه كلمة ثم والفاء في قوله تعالى ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ فان الشق بالمعنى المذكور لاترتب بينه وبين الامطار أصلا ولا بينه وبين انبات الحب بلا مهلة فان المراد بالنبات ما نبت من الارض الى أن يتكامل النمو وينعقد الحب فان انشقاق الارض بالنبات لا يزال يتزايد ويتسع الى تلك المرتبة على أن مساق النظم الكريم لبيان النعم الفائضة من جنابه تعالى على وجه بديع خارج عن العادات المعهودة كما ينبىء عنه ارداف الفعلين بالمصدرين فتوسيط فعل المنعم عليه فى حصول تلك النعم مخل بالمرام وللبحث فيه مجال وقيل عليه أيضا أن الشق بالكراب لا يظهر فى العنب والزيتون والنخل وأجيب بانه ليس من لوازم العطف تقييد المعطوف بجميع ما قيد به المعطوف عليه ويحتمل أن يكون ذكر الكراب في القيل على سبيل التمثيل أو أريد به ما يشمل الحفر وجوز أن يكون المراد شقها بالعيون على أن المراد بصب الماء امطار المطر وبهذا اجراء الانهار وتعقب بانه يأباه ترتب الشق على صب الماء بكلمة التراخى وأيضا ترتب الانبات على مجموع الصب والشق بالمعنى المذكور لا يلائم قوله تعالى وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا الآية لاشعاره باستقلال الصب وانزال الغيث فى ذلك ودفعا بان ماء العيون من المطر لا من الابخرة المحتبسة فى الارض ولا يخفى على ذى عين أن هذا الوجه بعيد متكلف والمراد بالحب جنس الحبوب التى يتقوت بها وتدخر كالحنطة والشعير والذرة وغيرها ﴿وَعِنَبًا﴾ معروف ﴿وَقَضْبًا﴾ أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس أنه قال هو الفصفصة وقيدها الخليل بالرطبة وقال اذا يبست فهى القت وسميت بمصدر قضبه أى قطعه مبالغة كانها لتكرر قطعها وتكثره نفس القطع وضعف هذا من فسر الاب بما يشمل ذلك وقيل هو كل مايقضب ليأكله ابن آدم غضا من النبات كالبقول والهليون وفي البحر عن الحبر أنه الرطب وهو يقضب من النخل واستأنس له بذكره مع العنب ولا يخفى مافيه ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً﴾ هما معروفان ﴿وَحَدَائِقَ﴾ رياضا ﴿غُلْبًا﴾ أى عظاما وأصله جمع أغلب وغلباء صفة العنق وقد يوصف به الرجل لكن الاول هو الاغلب ومنه قول الاعشى

يمشى بها غلب الرقاب كأنهم ✡ بزل كسين من الكحيل (١) جلالا

ووصف الحدائق بذلك على سبيل الاستعارة شبه تكاثف أوراق الاشجار وعروقها بغلاظ الاوداج وانتفاخ الاعصاب مع اندماج بعضها فى بعض في غلظ الرقبة ولا يرد أن الغلظ في الاشجار أقوى لان الامر بالعكس نظراً الى الاندماج وتقوى البعض بالبعض حتى صارت شيئاً واحداً وجوز أن يكون هناك مجاز مرسل كما في المرسن بان يراد بالاغلب الغليظ مطلقاً وتجوز في الاسناد أيضاً لان الحدائق نفسها ليست غليظة بل الغليظ أشجارها وقال بعض المراد بالحدائق نفس الاشجار لمكان العطف على مافي حيز أنبتنا فلا تغفل (وَفَاكِهَةً) قيل هى الثمار كلها وقيل بل هي الثمار ماعدا العنب والرمان وأياماً كان فذكر مايدخل فيها أولا للاعتناء بشأنه (وَأَبًّا) عن ابن عباس وجماعة انه الكلأ والمرعى من أبه اذا أمه وقصده لانه يؤم ويقصد أومن أب لكذا اذا تهيأ له لانه متهيء المرعى ويطلق على نفس مكان الكلا ومنه قوله

(٢) جذمنا قيس ونجد دارنا ✡ ولنا الاب بها والمكرع

وذكر بعضهم ان مايأكله الآدميون من النبات يسمى الحصيدة والحصيد ومايا كله غيرهم يسمى الاب وعليه قول بعض الصحابة يمدح النبى صلى الله تعالى عليه وسلم

له دعوة ميمونة ريحها الصبا ✡ بها ينبت الله الحصيدة والأبا

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك أنه التبن خاصة وقيل هو يابس الفاكهة لانها تؤب وتهيأ للشتاء للتفكه بها وأخرج أبو عبيد في فضائله وعبد بن حميد عن ابراهيم التيمى قال سئل أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه عن الاب ما هو فقال أى سماء تظلنى وأى أرض تقلنى اذا قلت في كتاب الله تعالى ما لا أعلم وأخرج ابن سعد وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وغيرهم عن أنس أن عمر رضى الله تعالى عنه قرأ على المنبر فانبتنا فيها حبا وعنبا الى قوله وأبا فقال كل هذا قد عرفناه فما الاب ثم رفض عصا كانت في يده فقال هذا لعمر الله هو التكلف فما عليك يا ابن أم عمر أن لاتدرى ما الاب ابتغوا ما بين لكم من هذا الكتاب فاعملوا به ومالم تعرفوه فكلوه الى ربه وفي صحيح البخارى من رواية أنس أيضا أنه قرأ ذلك وقال فما الاب ثم قال ما كلفنا أوما أمرنا بهذا ويتراءى من ذلك النهى عن تتبع معانى القرآن والبحث عن مشكلاته وفي الكشاف لم يذهب الى ذلك ولكن القوم كانت أكبر همتهم عاكفة على العمل وكان التشاغل بشيء من العلم لا يعمل به تكلفا فاراد رضى الله تعالى عنه أن الآية مسوقة في الامتنان على الانسان بمطعمه واستدعاء شكره وقد علم من فحواها أن الاب بعض ما أنبت سبحانه للانسان متاعا له أو لانعامه فعليك بما هو أهم من النهوض بالشكر له عز وجل على ما تبين لك ولم يشكل مما عدد من نعمته تعالى ولا تتشاغل عنه بطلب معنى الاب ومعرفة النبات الخاص الذى هو اسم له وا كتف بالمعرفة الجلية الى أن يتبين لك في غير هذا الوقت ثم وصى الناس بان يجروا على هذا السنن فيما أشبه ذلك من مشكلات القرآن انتهى وهو قصارى ما يقال في توجيه ذلك لكن في بعض الآثار عن الفاروق كما في الدر المنثور مايبعد فيه إن صح هذا التوجيه فى شيء وهو أنه ينبغى أن خفاء تعيين المراد من الاب على الشيخين رضى الله عنهما ونحوهما من الصحابة وكذا الاختلاف فيه لا يستدعى كونه غريبا مخلا بالفصاحة وانه غير مستعمل عند العرب العرباء وقد فسره ابن عباس لابن الازرق بما تعتلف منه الدواب واستشهد به بقول الشاعر ✡ ترى به الاب واليقطين مختلطا ✡ ووقع في شعر

(١) الكحيل مصغر وهو النفط يطلى به الجرب اه منه

(٢) جذمنا بكسر الجيم أى أصلنا اه منه

بعض الصحابة كما سمعت ومن تتبع وجد غير ذلك ﴿ مَتاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ قيل اما مفعول له اى فعل ذلك تمتيعا لكم ولمواشيكم فان بعض النعم المعدودة طعام لهم وبعضها علف لدوابهم وبوزع وينزل كل على مقتضاه والالتفات لتكميل الامتنان واما مصدر مؤكد لفعله المضمر بحذف الزوائد اى متعكم بذلك متاعا أو لفعل مرتب عليه أى فتمتعتم بذلك متاعا أى تمتعا أو مصدر من غير لفظه فان ماذكر من الافعال الثلاثة في معنى التمتيع وقدمر الكلام فى نظيره فتذكر ﴿ فَإِذا جاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴾ شروع في بيان أحوال معادهم بعد بيان مايتعلق بخلقهم ومعاشهم والفاء للدلالة على ترتب مابعدها على مايشعر به لفظ المتاع من سرعة زوال هاتيك النعم وقرب اضمحلالها والصاخة هي الداهية العظيمة من صخ بمعنى أصاخ اى استمع والمراد بها النفخة الثانية ووصفت بها لان الناس يصخون لها فجعلت مستمعة مجازا في الظرف أو الاسناد وقال الراغب الصاخة شدة صوت ذى النطق يقال صخ يصخ فهو صاخ فعليه هي بمعنى الصائحة مجازا أيضا وقيل مأخوذة من صخه بالحجر أى صكه وقال الخليل هي صيحة تصخ الآذان صخا أى تصمها لشدة وقعتها ومنه أخذ الحافظ أبو بكر بن العربى قوله الصاخة هي التى تورث الصمم وانها لمسمعة وهو من بديع الفصاحة كقوله

* أصم بك الداعي وان كان اسمعا * ثم قال ولعمر الله تعالى ان صيحة القيامة مسمعة تصم عن الدنيا وتسمع أمور الآخرة والكلام في جواب اذا وفي يوم من قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصاحِبَتِهِ ﴾ أى زوجته ﴿ وَبَنِيهِ ﴾ على نحو ما تقدم في النازعات فتذكره فما في العهد من قدم أى يوم يعرض عنهم ولا يصاحبهم ولا يسأل عن حالهم كما في الدنيا لاشتغاله بحال نفسه كما يؤذن به قوله تعالى ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ فانه استئناف وارد لبيان سبب الفرار وجعله جواب اذا والاعتذار عن عدم التصدير بالفاء بتقدير الماضى بغير قد أو المضارع المثبت أو بالفاء ابدال يوم يفر المرء عنه اياه لان البدل لا يطلب جزاء لا يخفى حاله على من شرط الانصاف على نفسه أى لكل واحد من المذكورين شغل شاغل وخطب هائل يكفيه في الاهتمام به وأخرج الطبرانى وابن مردويه والبيهقى والحاكم وصححه عن أم المؤمنين سودة بنت زمعة قالت قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان قلت يارسول الله واسوأتاه ينظر بعضهم الى بعض قال شغل الناس عن ذلك وتلا يوم يفر الآية وجاء في رواية الطبرانى عن سهل بن سعد انه قيل له عليه الصلاة والسلام ما شغلهم فقال صلى الله تعالى عليه وسلم نشر الصحائف فيها مثاقيل الذر ومثاقيل الخردل وقيل يفر منهم لعلمه أنهم لا يغنون عنه شيئاً وكلام الكشاف يشعر بذلك ويأباه ما سمعت وكذا ما قيل يفر منهم حذرا من مطالبتهم بالتبعات يقول الاخ لم تواسنى بمالك والابوان قصرت في برنا والصاحبة أطعمتنى الحرام وفعلت وصنعت والبنون لم تعلمنا ولم ترشدنا ويشعر بذلك ما أخرج أبو عبيد وابن المنذر عن قتادة قال ليس شيء أشد على الانسان يوم القيامة من أن يرى من يعرفه مخافة أن يكون يطلبه بمظلمة ثم قرأ يوم يفر الآية وذكر المرء بناء على أنه الرجل لا الانسان ليعلم منه حال المرأة من باب أولى وقيل هو من باب التغليب وفيه نظر وجعل القاضى ذكر المتعاطفات على هذا النمط من باب الترقى على اعتبار عطف الاب على الام سابقا على عطفهما على الاخ فيكون المجموع معطوفا عليه وكذا في صاحبته وبنيه فقال تأخير الاحب فالاحب للمبالغة كانه قيل يفر من أخيه بل من أبويه بل من صاحبته وبنيه ولا يخفى تكلفه مع اختلاف الناس والطباع في أمر الحب ولعل عدم مراعاة ترق أو تدل لهذا الاختلاف مع الرمز الى أن الامر يومئذ أبعد من أن يخطر بالبال فيا ذلك وروى عن ابن عباس أنه يفر قابيل من أخيه هابيل ويفر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من أمه ويفر

ابراهيم عليه السلام من أبيه ويفر نوح عليه السلام من ابنه ويفر لوط عليه السلام من امرأته وفي خبر رواه ابن عساكر عن الحسن نحو ذلك وفيه فيرون أن هذه الآية أعني يوم يفر الخ نزلت فيهم وكلا الخبرين لايعول عليهما ولاينبغي أن يلتفت اليهما كالا يخفى والذى أدين الله تعالى به نجاة أبويه صلى الله تعالى عليه وسلم وقد ألفت رسائل في ذلك رغما لانف على القارى ومن وافقه وأعتقد أن جميع آبائه عليه الصلاة والسلام لاسيما من ولداه بلا واسطة أوفر الناس حظا مما أوتى هناك من السعادة والشرف وسمو القدر

كم من أب قد سما بابن ذرى شرف ✡ كما سما برسول الله عدنان

وقرأ ابن محيصن وابن أبى عبلة وحميد وابن السميفع يعنيه بفتح الياء وبالعين المهملة أى يهمه من عناه الامر اذا أهمه أى أوقعه في الهم ومنه قوله صلى الله تعالى عليه وسلم من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه لا من عناه اذا قصده كما زعمه أبو حيان وقوله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ﴾ بيان لمآل أمر المذكورين وانقسامهم الى السعداء والاشقياء بعد ذكر وقوعهم في داهية دهياء فوجوه مبتدأ وسوغ الابتداء به كونه فى حيز التنويع كما مر ومسفرة خبره ويومئذ متعلق به أى مضيئة متهللة من أسفر الصبح اذا أضاء وعن ابن عباس ان ذلك من قيام الليل وعن الضحاك من آثار الوضوء فيختص ذلك بهذه الامة أى لان الوضوء من خواصهم قيل أى بالنسبة الى الامم السابقة فقط لامع أنبيائهم عليهم السلام وقيل من طول ما اغبرت في سبيل الله تعالى ﴿ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ أى مسرورة بما تشاهد من النعيم المقيم والبهجة الدائمة ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ أى غبار وكدورة ﴿تَرْهَقُهَا﴾ أى تعلوها وتغشاها ﴿قَتَرَةٌ﴾ اى سواد وظلمة ولاترى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه وسوى الفيروزابادى والجوهرى بين الغبرة والقترة فقيل المراد بالقترة الغبار حقيقة وبالغبرة ما يغشاهم من العبوس من الهم وقيل هما على حقيقتهما والمعنى ان عليها غبارا وكدورة فوق غبار وكدورة وقال زيد بن أسلم الغبرة ما انحطت الى الارض والقترة ما ارتفع الى السماء والمراد وصول الغبار الى وجوههم من فوق ومن تحت والمعول عليه ما تقدم وقرأ ابن أبى عبلة قترة بسكون التاء ﴿أُولَئِكَ﴾ اشارة الى اصحاب تلك الوجوه ومافيه من معنى البعد للايذان ببعد درجتهم فى سوء الحال أى أولئك الموصوفون بماذكر ﴿هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ أى الجامعون بين الكفر والفجور فلذلك جمع الله تعالى لهم بين الغبرة والقترة وكان الغبرة للفجور والقترة للكفور نعوذ بالله عز وجل من ذلك

سورة عَبَس

مكية في قول الجميع، وهي إحدى وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

[١] ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾ .

[٢] ﴿أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾ .

[٣] ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾ .

[٤] ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤﴾ .

فيه ست مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿عَبَسَ﴾ أي كلح بوجهه؛ يقال: عبس وبَسَر. وقد تقدّم. ﴿وتولَّى﴾ أي أعرض بوجهه ﴿أن جاءَهُ﴾ «أنْ» في موضع نصب لأنه مفعول له، المعنى لأن جاءه الأعمى، أي الذي لا يبصر بعينيه. فروى أهل التفسير أجمع أن قوماً من أشراف قريش كانوا عند النبي ﷺ وقد طمع في إسلامهم، فأقبل عبد الله بن أمّ مكتوم، فكره رسول الله ﷺ أن يَقْطَع عبدُ الله عليه كلامه، فأعرض عنه، ففيه نزلت هذه الآية. قال مالك: إن هشام بن عُروة حدّثه عن عروة، أنه قال: نزلتْ ﴿عبس وتولى﴾ في ٱبن أمّ مكتوم؛ جاء إلى النبي ﷺ فجعل يقول: يا محمد ٱستدنني[١]، وعند النبي ﷺ رجل من عظماء المشركين، فجعل النبي ﷺ يُعرِض عنه ويُقْبل على الآخر، ويقول: «يا فلان، هل ترى بما أقولُ بأساً»؟ فيقول: [لا والدُّمَى[٢] ما أرى بما تقول بأساً][٣]؛ فأنزل الله «عبس وتولى». وفي الترمذي مسنداً قال؛ حدّثنا سعيد بن يحيـى بن سعيد الأُموي، حدّثني أبي، قال هذا ما عرضنا على هشام بن عُروة عن أبيه عن عائشة، قالت: نزلت «عبس وتولى» في ٱبن أمّ مكتوم الأعمى، أتى رسول الله ﷺ

(١) الرواية هنا وفي ٱبن العربي يا محمد، والمشهور في التفسير يا رسول الله علمني مما علمك الله. وفي رواية: يا رسول الله أرشدني: كما سيأتي للمصنف.

(٢) الدمى: جمع دمية وهي الصورة، يريد بها الأصنام. (٣) ما بين المربعين ساقط من ب.

فجعل يقول: يا رسول الله أرشدني، وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول الله ﷺ يُعْرض عنه، ويُقْبل على الآخر، ويقول: «أترى بما أقول بأساً» فيقول: لا؛ ففي هذا نزلت؛ قال: هذا حديث غريب.

الثانية ـ الآية عتاب من الله لنبيه ﷺ في إعراضه وتوليه عن عبد الله بن أم مكتوم. ويقال: عمرو بن أم مكتوم، وآسم أمّ مكتوم عاتكة بنت عامر بن مخزوم، وعمرو هذا: هو آبن قيس بن زائدة بن الأصمّ، وهو آبن خال خديجة رضي الله عنها. وكان قد تشاغل عنه برجل من عظماء المشركين، يقال كان الوليد بن المغيرة. آبن العربي: قاله المالكية من علمائنا، وهو يكنى أبا عبد شمس. وقال قتادة: هو أمية بن خلص وعنه: أبيّ بن خلف. وقال مجاهد: كانوا ثلاثة عتبة وشيبة آبنا ربيعة وأبيّ بن خلف. وقال عطاء عتبة بن ربيعة. سفيان الثوري: كان النبي ﷺ مع عمه العباس. الزمخشري: كان عنده صناديد قريش: عتبة وشيبة آبنا ربيعة، وأبو جهل بن هشام، والعباس بن عبد المطلب، وأمية بن خَلَف، والوليد بن المغيرة يدعوهم إلى الإسلام، رَجاء أن يُسْلم بإسلامهم غيرهم. قال آبن العربيّ: أما قول علمائنا إنه الوليد بن المغيرة فقد قال آخرون إنه أمية بن خلف والعباس وهذا كله باطل وجهل من المفسرين الذين لم يتحققوا الدين، ذلك أن أمية بن خلف والوليد كانا بمكة وآبن أمّ مكتوم كان بالمدينة، ما حضر معهما ولا حضرا معه، وكان موتهما كافرين، أحدهما قبل الهجرة، والآخر ببدر، ولم يقصد قط أمية المدينة، ولا حضر عنده مفرداً، ولا مع أحد.

الثالثة ـ أقبل آبن أمّ مكتوم والنبي ﷺ مشتغل بمن حضره من وجوه قريش يدعوهم إلى الله تعالى، وقد قوِي طمعه في إسلامهم، وكان في إسلامهم إسلام من وراءهم من قومهم، فجاء آبن أمّ مكتوم وهو أعمى فقال؛ يا رسول الله علمني مما علمك الله، وجعل يناديه ويكثر النداء، ولا يدري أنه مشتغل بغيره، حتى ظهرت الكراهة في وجه رسول الله ﷺ لقطعه كلامه، وقال في نفسه: يقول هؤلاء: إنما أتباعه العُميان والسَّفلة

والعبيد؛ فعبَس وأعرض عنه؛ فنزلت الآية. قال الثَّوريّ: فكان النبي ﷺ بعد ذلك إذا رأى ابن أمّ مكتوم يبسط له رداءه ويقول: «مرحباً بمن عاتبني فيه ربي». ويقول: «هل من حاجة»؟ وآستخلفه على المدينة مرتين في غزوتين غزاهما. قال أنس: فرأيته يوم القادسية راكباً وعليه درع ومعه راية سوداء.

الرابعة ـ قال علماؤنا: ما فعله آبن أمّ مكتوم كان من سوء الأدب لو كان عالماً بأن النبي ﷺ مشغول بغيره، وأنه يرجو إسلامهم، ولكن الله تبارك وتعالى عاتبه حتى لا تنكسر قلوب أهل الصُّفَّة؛ أو ليعلم أن المؤمن الفقير خير من الغني، وكان النظر إلى المؤمن أولى وإن كان فقيراً أصلح وأولى من الأمر الآخر، وهو الإقبال على الأغنياء طمعاً في إيمانهم، وإن كان ذلك أيضاً نوعاً من المصلحة، وعلى هذا يخرج قوله تعالى: ﴿ما كان لِنبِيّ أن يكون له أسرى﴾.. الآية على ما تقدّم[١]. وقيل: إنما قصد النبي ﷺ تأليف الرجل، ثقة بما كان في قلب آبن أمّ مكتوم من الإيمان؛ كما قال: «إني لأصل الرجل وغيره أحب إليّ منه، مخافة أن يكُبه الله في النار على وجهه».

الخامسة ـ قال آبن زيد: إنما عبس النبي ﷺ لابن أمّ مكتوم وأعرض عنه؛ لأنه أشار إلى الذي كان يقوده أن يكفه، فدفعه آبن أمّ مكتوم، وأبى إلا أن يكلم النبي ﷺ حتى يعلمه، فكان في هذا نوعُ جفاء منه. ومع هذا أنزل الله في حقه على نبيه ﷺ: ﴿عبَس وتولّى﴾ بلفظ الإخبار عن الغائب، تعظيماً[٢] له ولم يقل: عبَستَ وتوليتَ. ثم أقبل عليه بمواجهة الخطاب تأنيساً له فقال: ﴿وما يُدْرِيكَ﴾ أي يعلمك ﴿لَعَلَّه﴾ يعني آبن أمّ مكتوم ﴿يَزَّكَّى﴾ بما آستدعَى منك تعليمه إياه من القرآن والدين، بأن يزداد طهارة في دينه، وزوال ظلمة الجهل عنه. وقيل: الضمير في «لعله» للكافر يعني إنك إذا طمعت في أن يتزكى بالإسلام أو يذَّكر، فتقربه الذكرى إلى قبول الحق

---

(١) راجع ٨/٤٥ فما بعدها.

(٢) في أ، ح: تعليماً.

وما يُدْريك أن ما طمعت فيه كائن. وقرأ الحسن «آأن[١] جاءه الأعمى» بالمدّ على الاستفهام فـ «ـأن» متعلقة بفعل محذوف دل عليه «عبس وتولى» التقدير: آأن جاءه أعرض عنه وتولى؟ فيوقف على هذه القراءة على «وتولّى»، ولا يوقف عليه على قراءة الخبر، وهي قراءة العامة.

السادسة ـ نظير هذه الآية في العتاب قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ولا تَطْرُدِ الذين يدعون ربهم بالغَداة والعَشِيِّ﴾ وكذلك قوله في سورة الكهف: ﴿ولا تَعْدُ عَيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا﴾ وما كان مثله، والله أعلم. ﴿أَوْ يَذَّكَّر﴾ يتعظ بما تقول ﴿فتنفَعه الذِّكرى﴾ أي العظة. وقراءة العامة «فتنفعُه» بضم العين، عطفاً على «يَزَّكّى». وقرأ عاصم وابن أبي إسحاق وعيسى «فتنفَعه» نصباً. وهي قراءة السُّلمِيّ وزِرّ بن حُبَيش، على جواب لعل، لأنه غير موجَب؛ كقوله تعالى: ﴿لعلّي أبلغ الأسبابَ﴾ ثم قال: «فأَطَّلع».

[٥] ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥﴾.

[٦] ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦﴾.

[٧] ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧﴾.

[٨] ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨﴾.

[٩] ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩﴾.

[١٠] ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾.

قوله تعالى: ﴿أما مَنِ ٱستغنَى﴾ أي كان ذا ثروة وغِنًى ﴿فأنتَ له تَصَدَّى﴾ أي تَعَرَّضُ له، وتُصْغِي لكلامه. والتصدّي: الإصغاء؛ قال الراعي:

تَصَدَّى لِوَضَّاحٍ كأَنَّ جَبينه ... سراجُ الدُّجَى يَحْنِي إليه الأساورُ[٢]

وأصله تتصدَّد من الصُّدّ، وهو ما ٱستقبلك، وصار قِبالتك؛ يقال؛ داري صدَدُ داره أي قِبالتها، نُصِب على الظرف. وقيل: من الصَّدَى وهو العطش. أي تتعرض له كما يتعرّض العطشان للماء، والمصَاداة: المعارضة. وقراءة العامة «تَصَدَّى» بالتخفيف، على طرح التاء

(١) قال الزمخشري وقرىء «آأن» بهمزتين وألف بينهما.

(٢) الإسوار (بكسر الهمزة وضمها) قائد الفرس، وقيل: هو الجيد الرمي بالسهام، وقيل: هو الجيد الثبات على ظهر الفرس، والجمع أساورة وأساور.

الثانية تخفيفاً. وقرأ نافع وابن مُحيص بالتشديد على الإدغام. ﴿وما عَليكَ ألاّ يَزَّكّى﴾ أي لا يهتدي هذا الكافر ولا يؤمن، إنما أنت رسول، ما عليك إلا البلاغ.

قوله تعالى: ﴿وأما من جاءك يسعَى﴾ يطلب العلم لله ﴿وهُوَ يَخْشَى﴾ أي يخاف الله. ﴿فأنتَ عنه تَلَهَّى﴾ أي تُعرض عنه بوجهك وتُشْغَل بغيره. وأصله تتلهى؛ يقال: لَهِيتُ عن الشيء أَلْهَى: أي تشاغلت عنه. والتلهي: التغافل. ولَهِيتُ عنه وتَليتُ: بمعنى.

[١١] ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ١١﴾.

[١٢] ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ١٢﴾.

[١٣] ﴿فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ١٣﴾.

[١٤] ﴿مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ١٤﴾.

[١٥] ﴿بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ١٥﴾.

[١٦] ﴿كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ١٦﴾.

قوله تعالى: ﴿كلاَّ إنها تذكِرةٌ﴾ «كلاّ» كلمة ردع وزجر؛ أي ما الأمرُ كما تفعل مع الفريقين؛ أي لا تفعل بعدها مثلها: من إقبالك على الغنِيّ، وإعراضك عن المؤمن الفقير. والذي جرى من النبي ﷺ كان تركَ الأولَى كما تقدّم، ولو حُمِل على صغيرة لم يبعد؛ قاله القشيري. والوقف على «كَلاّ» على هذا الوجه: جائز. ويجوز أن تقف على «تَلَهَّى» ثم تبتدىء «كَلاّ» على معنى حَقّا. ﴿إنها﴾ أي السورة أو آيات القرآن ﴿ تذكِرة ﴾ أي موعظة وتبصرة للخلق ﴿ فمن شاءَ ذكره ﴾ أي اتعظ بالقرآن. قال الجُرجاني: «إنها» أي القرآن، والقرآن مذكر إلا أنه لما جعل القرآن تذكرة، أخرجه على لفظ التذكرة، ولو ذَكّره لجاز؛ كما قال تعالى في موضع آخر: «كلاَّ إنه تذكِرة». ويدل على أنه أراد القرآن قوله : « فمن شاءَ ذكَره » أي كان حافظاً له غير ناس؛ وذكَّر الضمير ، لأن التذكرة في معنى الذكر والوعظ . وروى الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فمن شاء ذكره﴾ قال من شاء اللّهُ تبارك وتعالى ألهمه. ثم أخبر عن جلالته فقال : ﴿ فِي صحفٍ ﴾ جمع صحيفة ﴿ مُكَرّمةٍ ﴾ أي عند الله ؛ قاله السُّدِّي. الطبريّ : « مُكَرَّمةٍ » في الدين لما فيها من العلم والحِكَم. وقيل: «مُكَرمةٍ» لأنها نزل بها كرام الحفظة ، أو لأنها نازلة من اللوح المحفوظ. وقيل: «مكرمة»

لأنها نزلت من كريم؛ لأن كرامة الكتاب من كرامة صاحبه. وقيل: ا لمراد كُتُب الأنبياء؛ دليله: «إِن هذا لَفِي الصحفِ الأولى: صحفِ إبراهِيم وموسى». ﴿مرفوعةٍ﴾ رفيعة القدر عند الله. وقيل: مرفوعة عنده تبارك وتعالى. وقيل: مرفوعة في السماء السابعة، قاله يحيى بن سلام. الطبريّ: مرفوعة الذكر والقدر. وقيل: مرفوعة عن الشُّبَه والتناقض. ﴿مُطَهّرةٍ﴾ قال الحسن: من كل دنس. وقيل: مصانة[1] عن أن ينالها الكفار. وهو معنى قول السُّدّيّ. وعن الحسن أيضاً: مطهّرة من أن تنزل على المشركين. وقيل: أي القرآن أثبت للملائكة في صحف يقرءونها فهي مكرمة مرفوعة مطهرة. ﴿بِأيدِي سَفَرَةٍ﴾ أي الملائكة الذين جعلهم الله سفراء بينه وبين رسله، فهم بررة لم يتدنسوا بمعصية. ورَوى أبو صالح عن ٱبن عباس قال: هي مطهرة تجعل التطهير لمن حملها ﴿بِأيدِي سَفَرةٍ﴾ قال: كَتَبةٍ. وقاله مجاهد أيضاً. وهم الملائكة الكرام الكاتبون لأعمال العباد في الأسفار، التي هي الكتب، واحدهم: سافر؛ كقولك: كاتب وكَتَبة. ويقال: سَفَرْتُ أي كتبتُ، والكتاب: هو السفر، وجمعه أسفار. قال الزجاج: وإنّما قيل للكتاب سِفْر، بكسر السين، وللكاتب سافر؛ لأن معناه أنه يبين الشيء ويوضحه. يقال: أسفر الصبح: إذا أضاء، وسَفَرتِ المرأة: إذا كشفت النقاب عن وجهها. قال: ومنه سَفَرْت بين القومِ أَسْفِر سفارة: أصلحت بينهم. وقاله الفراء، وأنشد:

فما أَدَعُ السِّفارةَ بينَ قومِي ولا أَمشِي بغِشٍّ إن مَشَيْتُ

والسفير: الرسول والمصلح بين القوم، والجمع: سفراء، مثل فقيه وفقهاء. ويقال للورّاقين سُفَراءُ، بلغة العِبرانية. وقال قتادة: السَّفَرة هنا: هم القُرّاء، لأنهم يقرءون الأسفار. وعنه أيضاً كقول ٱبن عباس. وقال وهب بن مُنَبّه: ﴿بِأيدِي سَفَرةٍ. كِرامٍ بَرَرةٍ﴾ هم أصحاب النبي ﷺ. قال ٱبن العربيّ: لقد كان أصحاب رسول الله ﷺ سفرةً، كِراماً بَرَرَة، ولكن ليسوا بمرادين بهذه الآية، ولا قاربوا المرادِين بها، بل هي لفظة مخصوصة بالملائكة عند الإطلاق، ولا يشاركُهم فيها سواهم، ولا يدخل معهم في مُتناولها غيرهم. ورُوِي

(١) كذا في الأصول، وهو مخالف لما في كتب اللغة. والصواب: (مصونة). انظر «تاج العروس».

في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: [مَثَل][1] الذي يقرأ القرآن وهو حافظ له، مع السَّفَرة الكرام البررة؛ ومثَل الذي يقرؤه وهو يتعاهده، وهو عليه شديد، فله أجران» متفق عليه، واللفظ للبخاريّ. ﴿كِرامٍ﴾ أي كرام على ربهم؛ قاله الكلبيّ. الحسن: كرام عن المعاصي، فهم يرفعون أنفسهم عنها. وروى الضحاك عن ابن عباس في «كِرامٍ» قال: يتكرمون أن يكونوا مع ابن آدم إذا خلا بزوجته، أو تبرز لغائطه. وقيل: أي يؤثرون منافع غيرهم على منافع أنفسهم. ﴿بَرَرَةٍ﴾ جمع بارّ مثل كافر وكفرة، وساحر وسحرة، وفاجر وفجرة؛ يقال: بر وبارّ إذا كان أهلاً للصدق، ومنه بَرَّ فلان في يمينه: أي صدق، وفلان يَبَرّ خالقه ويتبرره: أي يطيعه؛ فمعنى «بررةٍ» مطيعون لله، صادقون لله في أعمالِهم. وقد مضى في سورة «الواقعة» قوله تعالى: ﴿إنه لقرآن كريم فِي كِتابٍ مكنونٍ. لا يمسه إلا المطهرون﴾[2] أنهم الكرام البَرَرَة في هذه السورة.

[١٧] ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾.

[١٨] ﴿مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾﴾.

[١٩] ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾﴾.

[٢٠] ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾﴾.

[٢١] ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾﴾.

[٢٢] ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾.

[٢٣] ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قتِل الإنسان ما أكفره﴾؟ «قتِل» أي لعِن. وقيل: عُذِّب. والإنسان الكافر. روى الأعمش عن مجاهد قال: ما كان في القرآن «قُتِل الإنسان» فإنما عُني به الكافر. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: نزلت في عُتْبة بن أبي لَهَب، وكان قد آمن، فلما نزلت «والنجم» ارتدّ، وقال: آمنت بالقرآن كلّه إلا النجم، فأنزل الله جلّ ثناؤه فيه ﴿قتِل الإنسان﴾ أي لُعن عُتبة حيث كفر بالقرآن، ودعا عليه رسول الله ﷺ

---

(١) الزيادة من «صحيح البخاري». (٢) راجع ١٧/ ٥٢٢.

فقال: « اللَّهُمْ سلِّطْ عليه كلبك أسد الغاضِرة »[١] فخرج من فوره بتجارة إلى الشام، فلما ٱنتهى إلى الغاضرة تذكر دعاء النبي ﷺ، فجعل لمن معه ألف دينار إن هو أصبح حياً، فجعلوه في وسط الرُّفقة، وجعلوا المتاع حوله، فبينما هم على ذلك أقبل الأسد، فلما دنا من الرحال وثب، فإذا هو فوقه فمزقه، وقد كان أبوه ندبه وبكى وقال: ما قال محمد شيئاً قَطُّ إلا كان. وروى أبو صالح عن ٱبن عباس «ما أكفره»: أيُّ شيء أكفره؟ وقيل: «ما» تعجب؛ وعادة العرب إذا تعجبوا من شيء قالوا: قاتله الله ما أحسنه! وأخزاه الله ما أظلمه؛ والمعنى: اعجبوا من كفر الإنسان لجميع ما ذكرنا بعد هذا. وقيل: ما أكفره بالله ونعمه مع معرفته بكثرة إحسانه إليه على التعجب أيضاً؛ قال ٱبن جريج: أي ما أشدّ كفره! وقيل: «ما» ٱستفهام أي أيّ شيء دعاه إلى الكفر؛ فهو ٱستفهام توبيخ. و«ما» تحتمل التعجب، وتحتمل معنى أيّ، فتكون ٱستفهاماً. ﴿مِن أيِّ شيءٍ خَلَقَهُ﴾ أي من أيّ شيء خلق الله هذا الكافر فيتكبر؟ أي ٱعجبوا لخلقه. ﴿مِن نطفةٍ﴾ أي من ماء يسيرٍ مَهين جَماد ﴿خَلَقَهُ﴾ فلَم يغلط في نفسه؟! قال الحسن: كيف يتكبر من خرج من سبيل البول مرتين. ﴿فقدَّره﴾ في بطن أمه. كذا روى الضحاك عن ابن عباس: أي قدّر يديه ورجليه وعينيه وسائر آرابه، وحسناً ودميماً، وقصيراً وطويلاً، وشقياً وسعيداً. وقيل: «فقدّره» أي فسواه كما قال: ﴿أكفرت بِالذِي خلقك مِن ترابٍ ثم من نطفةٍ ثم سَوَّاك رجلاً﴾. وقال: ﴿الذِي خلقك فسواك﴾. وقيل: «فقدَّره» أطواراً أي من حال إلى حال؛ نطفة ثم علقة، إلى أن تم خَلْقه. ﴿ثم السبِيل يَسَّره﴾ قال ابن عباس في رواية عطاء وقتادة والسدي ومقاتل: يسَّره للخروج من بطن أمه. مجاهد: يسَّره لطريق الخير والشر؛ أي بيَّن له ذلك. دليله: ﴿إنا هديناه السبِيلَ﴾ و﴿هديناه النجدَينِ﴾. وقاله الحسن وعطاء وابن عباس أيضاً في رواية أبي صالح عنه. وعن مجاهد أيضاً قال: سبيل

---

(١) كذا لفظ الحديث في الأصول ورواية أبي حيان له: «اللهم ٱبعث عليه كلبك يأكله»، ثم قال: فلما ٱنتهى إلى الغاضرة.. الخ.

الشقاء والسعادة. ابن زيد: سبيل الإسلام. وقال أبو بكر بن طاهر: يَسَّر على كل أحد ما خلقه له، وقدَّره عليه؛ دليله قوله عليه السلام: «اعملوا فكلٌّ مُيَسَّر لماخُلِق له».
﴿ثم أماته فأقبره﴾ أي جعل له قبراً يوارَى فيه إكراماً، ولم يجعله مما يُلقَى على وجه الأرض تأكله الطير والعوافي[1]؛ قاله الفرّاء. وقال أبو عبيدة: «أقبره»: جعل له قبراً، وأمر أن يُقْبر. قال أبو عبيدة: ولما قتَلَ عمرُ بن هُبيرة صالحَ بن عبد الرحمن، قالت بنو تميم ودخلوا عليه: أَقبِرنا صالحاً؛ فقال: دونكموه. وقال: «أَقبره» ولم يقل قَبَره؛ لأن القابر هو الدافن بيده، قال الأعشى:

لـو أَسْنـدتْ مَيْتـا إلـى نحـرِهـا ... عـاشَ ولـم يُنْقَـلْ إلـى قـابِـرِ

يقال: قبرت الميت: إذا دفنته، وأقبره الله: أي صيره بحيث يُقْبر، وجعل له قبراً؛ تقول العرب: بترت ذَنَب البعير، وأبتره الله، وعضبت قَرْن الثور، وأعضبه الله، وطردت فلاناً، والله أطرده، أي صيره طريداً. ﴿ثم إذا شاء أنشره﴾ أي أحياه بعد موته. وقراءة العامة «أَنشرهُ» بالألف. وروى أبو حَيْوة عن نافع وشعيب بن أبي حمزة «شاء نشره» بغير ألف، لغتان فصيحتان بمعنى؛ يقال: أنشر الله الميت ونَشَره؛ قال الأعشى:

حتـى يقـولَ النـاس ممـا رأوا ... يـا عَجَبَـا للميـتِ النـاشِـرِ

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَمَّا يقضِ ما أَمَرَهُ﴾ قال مجاهد وقتادة: «لَمّا يَقْضِ»: لا يقضي أحد ما أُمرِ به. وكان ابن عباس يقول: ﴿لما يقضِ ما أمره﴾ لم يفِ بالميثاق الذي أُخِذ عليه في صلب آدم. ثم قيل: «كَلَّا» ردع وزجر، أي ليس الأمر: كمَا يقول الكافر؛ فإن الكافر إذا أُخبر بالنُّشور قال: ﴿ولئِن رُجِعت إلى ربي إن لِي عِندَه للحُسْنَى﴾ ربما يقول قد قضيت ما أَمِرت به. فقال: كلاّ لمْ يقضِ شيئاً بل هو كافر بي وبرسولي. وقال الحسن: أي حَقّاً لم يقضِ: أي لم يَعمل بما أُمر به. و «ما» في قوله: «لَمّا» عماد للكلام؛ كقوله تعالى: ﴿فبِما رحمةٍ مِن اللّهِ﴾ وقوله: ﴿عما قَلِيلٍ ليصبِحُنّ نادِمينَ﴾

---

(١) العوافي: طلاب الرزق من الإنس والدواب والطير؛ والمراد هنا: الوحوش والبهائم.

وقال الإمام ٱبن فُورَك: أي: كَلاّ لَمّا يقضِ الله لهذا الكافر ما أَمره به من الإيمان، بل أمره بما لم يقضِ له. ٱبن الأنباريّ: الوَقف على «كَلاّ» قبيح، والوقف على «أَمره» و «نشره» جيد؛ فـ «كلاَّ» على هذا بمعنى حَقًّا.

[٢٤] ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾.

[٢٥] ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾﴾.

[٢٦] ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾﴾.

[٢٧] ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾﴾.

[٢٨] ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾﴾.

[٢٩] ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾﴾.

[٣٠] ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾﴾.

[٣١] ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾. [٣٢] ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فلينظرِ الإنسانُ إِلى طعامهِ﴾ لما ذكر جلّ ثناؤه ٱبتداء خلق الإنسان، ذكر ما يَسَّر من رزقه؛ أي فلينظر كيف خَلَق الله طعامه. وهذا النظر نظر القلب بالفكر؛ أي ليتدبّر كيف خَلَق الله طعامَه الذي هو قِوام حياته، وكيف هيأ له أسباب المعاش، ليستعد بها للمعاد. ورُوِي عن الحسن ومجاهد قالا: ﴿فَلْيَنْظرِ الإنسان إلى طعامِهِ﴾ أي إلى مُدْخله ومُخْرجه. وروى ٱبن أبي خَيْثمة عن الضحاك بن سفيان الكلابيّ قال: قال لي النبي ﷺ: «يا ضحاكُ ما طعامك» قلت: يا رسول الله! اللَّحم واللبن؛ قال: «ثم يصير إلى ماذا» قلت إلى ما قد علمته؛ قال: «فإنّ الله ضرب ما يخرج من ٱبن آدم مثلاً للدنيا». وقال أبيّ بن كعب: قال النبي ﷺ: «إن مَطْعَمَ ٱبن آدم جُعِل مثلاً للدنيا وإن قَزَحه[1] ومَلَّحه فٱنظر إلى ما يصير». وقال أبو الوليد: سألت ٱبن عَمر عن الرجل يدخل الخَلاء فينظر ما يخرج منه؛ قال: يأتيه الملك فيقول ٱنظر ما بَخِلت به إلى ما صار؟.

---

(١) قزحه: أي تبله. من القزح، وهو التابل الذي يطرح في القدر، كالكمون والكزبرة ونحو ذلك. والمعنى: إن المطعم وإن تكلف الإنسان التنوق في صنعته وتطييبه فإنه عائد إلى حال يكره ويستقذر، فكذلك الدنيا المحروص على عمارتها ونظم أسبابها راجعة إلى خراب وإدبار» «النهاية».

قوله تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبنا الماءَ صبًّا﴾ قراءة العامة «إنا» بالكسر، على الاستئناف. وقرأ الكوفيون ورُوَيْس عن يعقوب «أَنا» بفتح الهمزة، فـ«ـأنا» في موضع خفض على الترجمة عن الطعام، فهو بدل منه؛ كأنه قال: «فلينظرِ الإنسان إلى طعامِهِ» إلى «أنا صببنا»، فلا يحسُن الوقف على «طعامِهِ» من هذه القراءة. وكذلك إن رفعت «أَنا» بإضمار هو أنا صببنا؛ لأنها في حال رفعها مترجِمة عن الطعام. وقيل: المعنى: لأنا صببنا الماء، فأخرجنا به الطعام، أي كذلك كان. وقرأ الحسين[١] بن عليّ «أَنَّى» ممال، بمعنى كيف؟ فمن أخذ بهذه القراءة قال: الوقف على «طعامه» تام. ويقال: معنى «أَنَّى» أين، إلا أنَّ فيها كناية عن الوجوه؛ وتأويلها: من أي وجه صَببنا الماء؛ قال الكميت:

أَنَّى ومِنْ أينَ آبكَ[٢] الطَّرَبُ مِن حيثُ لا صَبْوةٌ ولا رِيبُ

«صببنا الماء صباً»: يعني الغيث والأمطار. ﴿ثم شققنا الأرض شقاً﴾: أي بالنبات ﴿فأَنبتنا فِيها حَبًّا﴾ أي قمحاً وشعيراً وسُلْتاً[٣] وسائر ما يُحْصَد ويدَّخر ﴿وعِنبًا وقضباً﴾ وهو القَتّ والعَلَف؛ عن الحسن: سمي بذلك لأنه يُقْضَب أي يقطع بعد ظهوره مرة بعد مرة. قال القُتَبيّ وثعلب: وأهل مكة يسمون القَتَّ القَضْب. وقال ابن عباس: هو الرّطب لأنه يُقْضَب من النخل: ولأنه ذكر العِنب قبله. وعنه أيضاً: أنه الفِصفِصة وهو القَتّ الرطب. وقال الخليل القضب الفِصْفِصة الرطبة. وقيل: بالسين ، فإذا يبست فهو قَتٌّ ، قال: والقضْب: اسم يقع على ما يُقْضب من أغصان الشجرة، ليتخذ منها سِهام أو قِسِيّ. ويقال: قَضْبا، يعني جميع ما يقضب، مثل القَتِّ والكُرّاث وسائر البقول التي تقطع فينبت أصْلها . وفي الصحاح : والقَضْبة والقَضْب الرَّطْبة، وهي الإسفسْت بالفارسية، والموضع الذي يَنْبُت فيه مَقْضَبة. ﴿وزيتوناً﴾ وهي شجرة الزيتون ﴿ونخلاً﴾ يعني النخيل ﴿وحدائق﴾ أي

(١) في ب، ز: قرأ بعض القراء.
(٢) آبك: أتاك. الريب: صروف الدهر.
(٣) السلت (بالضم): ضرب من الشعير.

بساتين واحدها حديقة. قال الكلبي: وكل شيء أَحيط عليه من نخيل أو شجر فهو حديقة، وما لم يُحَط عليه فليس بحديقة. ﴿غُلْبا﴾ عظاماً شجرها؛ يقال: شجرة غَلْباء، ويقال للأسد: الأغلب؛ لأنه مُصْمَت العنق، لا يلتفت إلا جميعاً؛ قال العجاج:

ما زِلتُ يوم البَيْن ألوِي صَلَبِي والرأسَ حتى صِرتُ مِثلْ الأغلِب

ورجل أغلب بيّن الغَلَب إذا كان غليظ الرقبة. والأصل في الوصف بالغلَب: الرقاب فاستعير؛ قال قال عمرو بن مَعدِي كرِب:

يَمشِي بها غُلْب الرقابِ كأَنهم بُزْل كُسِين مِن الكُحَيْلِ جِلالا[1]

وحديقة غلباء: ملتفة وحدائق غُلْب. واغلَولَب العشب: بلغ والتف البعض بالبعض. قال ابن عباس: الغُلْب: جمع أغلب وغلباء وهي الغِلاظ. وعنه أيضاً الطِّوال. قتادة وابن زيد: الغُلْب: النخل الكرام. وعن ابن زيد أيضاً وعِكرمة: عظام الأوساط والجذوع. مجاهد: ملتفة. ﴿وفاكِهة﴾ أي ما تأكله الناس من ثمار الأشجار كالتين والخَوْخ وغيرهما ﴿وأَبًّا﴾ هو ما تأكله البهائم من العُشب؛ قال ابن عباس والحسن: الأبُّ: كل ما أنبتت الأرض، مما لا يأكله الناس، ما يأكله الآدميون هو الحَصيد؛ ومنه قول الشاعر في مدح النبي ﷺ:

لَه دَعْوة ميْمونة ريحُها الصَّبا بهـا يُنبِتُ الله الحِصيـدة والأَبّـا

وقيل: إنما سمي أبًّا؛ لأنه يُؤَبُّ أي يُؤَمّ ويُنْتَجع. والأب والأم: أَخَوان؛ قال:

جِـذمنـا قيـسٌ ونجـدٌ دارنـا ولنـا الأبُّ بِـهِ والمَكْـرَع[2]

وقال الضحاك: والأب: كل شيء ينبت على وجه الأرض. وكذا قال أبو رَزِين: هو النبات. يدلّ عليه قول ابن عباس قال: الأبُّ: ما تنبت الأرض مما يأكل الناس والأنعام.

---

(١) الكحيل: نوع من القطران تطلى به الإبل للجرب ولا يستعمل إلا مصغراً. وجل الدابة: الذي تلبسه لتصان به، والجمع جلال وأجلال.

(٢) الجذم (بكسر الجيم): الأصل. والمكرع: مفعل من الكرع، أراد به الماء الصالح للشرب.

وعن ٱبن عباس أيضاً وٱبن أبي طلحة: الأبّ: الثمار الرَّطْبة. وقال الضحاك: هو التين خاصة. وهو محكي عن ٱبن عباس أيضاً؛ قال الشاعر:

فما لَهُمُ مَرْتَعٌ لِلسَّوا[1] ... مِ والأَبُّ عندَهم يُقْدَرُ

الكلبيّ: هو كل نبات سوى الفاكهة. وقيل: الفاكهة: رَطْب الثمار، والأب يابسها. وقال إبراهيم التيميّ: سئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن تفسير الفاكهة والأب فقال: أيُّ سماء تُظلني، وأيُّ أرض تُقِلُّني إذا قلت: في كتاب الله ما لا أعلم. وقال أنس: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ هذه الآية ثم قال: كل هذا قد عرفناه، فما الأبّ؟ ثم رفع عصا كانت بيده وقال: هذا لعَمْر اللهِ التكلُّف، وما عليك يا بن أم عُمَر ألاَّ تدري ما الأب؟ ثم قال: ٱتبعوا ما بُيِّن لكم من هذا الكتاب، وما لا فدعوه. ورُوِي عن النبي ﷺ أنه قال: «خُلِقتم من سبْع، ورزِقتم من سبع، فاسجدوا لله على سبْع». وإنما أراد بقوله: «خلقتم من سبع» يعني ﴿مِن نطفةٍ * ثم مِن عَلَقةٍ * ثم مِن مُضْغةٍ﴾. الآية، والرزق من سبْع، وهو قوله تعالى: ﴿فأنبتنا فِيها حَبًّا وعنباً﴾ إلى قوله: «وفاكِهة»، ثم قال: «وأبًّا» وهو يدل على أنه ليس برزق لابن آدم، وأنه مما تختص به البهائم. والله أعلم. ﴿متَاعاً لكُمْ﴾ نصب على المصدر المؤكّد، لأن إنبات هذه الأشياء إمتاع لجميع الحيوانات. وهذا ضرب مثلٍ ضربه الله تعالى لبعث الموتَى من قبورهم؛ كنبات الزرع بعد دُثُوره، كما تقدم بيانه في غير موضع. ويتضمن ٱمتناناً عليهم بما أنعم به، وقد مضى في غير موضع أيضاً.

[٣٣] ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾﴾. [٣٤] ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾﴾.

[٣٥] ﴿وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾﴾. [٣٦] ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾.

[٣٧] ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾. [٣٨] ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾﴾.

[٣٩] ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾. [٤٠] ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾﴾.

[٤١] ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾. [٤٢] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾.

(١) السوام والسائمة: المال الراعي من الإبل والغنم وغيرهما.

قوله تعالى: ﴿فإذا جاءتِ الصاخَّةُ﴾ لما ذكر أمر المعاش ذكر أمر المعاد، ليتزودوا له بالأعمال الصالحة، وبالإنفاق مما أمتَنَّ به عليهم. والصاخّة: الصيحة التي تكون عنها القيامة، وهي النفخة الثانية، تَصُخ الأسماع: أي تُصِمُّها فلا تسمع إلا ما يُدْعَى به للأحياء. وذكر ناس من المفسرين قالوا: تصِيخ لها الأسماع، من قولك: أصاخ إلى كذا: أي أستمع إليه، ومنه الحديث: «ما من دابة إلاّ وهي مُصيخة يومَ الجمعة شَفَقاً من الساعة إلاّ الجنَّ والإنس». وقال الشاعر:

يُصِيــخُ لِلنَّبْــأَةِ أَسْمــاعَــهُ إِصــاخــةَ المُنْشِــدِ لِلمنْشِــدِ

قال بعض العلماء: وهذا يؤخذ على جهة التسليم للقدماء، فأما اللغة فمقتضاها القول الأوّل، قال الخليل: الصاخَّة: صيحة تَصُخ الآذان صَخًّا أي تُصِمُّها بشدة وقعتها. وأصل الكلمة في اللغة: الصَّكُّ الشديد. وقيل: هي مأخوذة من صَخَّه بالحجر: إذا صَكَّه، قال الراجز:

يا جارتي هل لكِ أن تجالِدِي جـلادة كـالصَّـك بـالجَـلامِـدِ

ومن هذا الباب قول العرب: صَخَّتْهمُ الصّاخة وباتتهم البائتة، وهي الداهية. الطبريّ: وأحسبه من صَخّ فلان فلاناً: إذا أصماه. قال ابن العربيّ[1]: الصاخّة التي تُورِث الصَّمَم، وإنها لمُسمِعة، وهذا من بديع الفصاحة، حتى لقد قال بعض حَديثي الأسنان حديثي الأزمان:

أَصَمَّ بِكَ الناعِي وإِنْ كان أَسْمَعا

وقال آخر:

أَصَمَّنِـي سِـرُّهـم أيـامَ فُـرقتهـم فهل سمِعتم بِسِرٍّ يُورِث الصَّمَما

لعمر اللّهِ إنّ صيحة القيامة لمسمِعة تُصِم عن الدنيا، وتُسمِعُ أمور الآخرة.

قوله تعالى: ﴿يومَ يَفِرُّ المرءُ مِن أخِيهِ﴾ أي يهرب، أي تجيء الصاخة في هذا اليوم الذي يهرب فيه من أخيه؛ أي من موالاة أخيه ومكالمته؛ لأنه لا يتفرغ لذلك، لاشتغاله بنفسه؛ كما قال بعده: ﴿لِكل أمرِىءٍ مِنهمْ يومئِذٍ شأنٌ يُغْنِيهِ﴾ أي يشغله عن غيره. وقيل: إنما يفر حذراً من مطالبتهم إياه، لما بينهم من التَّبِعات. وقيل: لئلا يَرَوا ما هو

(١) لم نجد كلام ابن العربي هذا في النسخة المطبوعة بمطبعة السعادة من كتابه (أحكام القرآن).

فيه من الشدة. وقيل: لعلمه أنهم لا ينفعونه ولا يغنون عنه شيئاً؛ كما قال: ﴿يوم لا يغنِي مولًى عن مولًى شيئاً﴾. وقال عبد الله بن طاهر الأبهري: يفرّ منهم لما تبين له من عجزهم وقلة حيلتهم، إلى من يملك كشف تلك الكروب والهموم عنه، ولو ظهر له ذلك في الدنيا لما آعتمد شيئاً سوى ربه تعالى. ﴿وصاحِبتِهِ﴾ أي زوجته. ﴿وبنِيهِ﴾ أي أولاده.

وذكر الضحاك عن آبن عباس قال: يفرّ قابيلُ من أخيه هابيلَ، ويفر النبيُّ ﷺ من أمه، وإبراهيم عليه السلام من أبيه، ونوح عليه السلام من آبنه، ولوط من آمرأته، وآدم من سَوأة بنيه. وقال الحسن: أوّل من يفرّ يوم القيامة من أبيه: إبراهيم، وأوّل من يفرّ من آبنه نوح، وأوّل من يفرّ من آمرأته لوط. قال: فيَرون أن هذه الآية نزلت فيهم وهذا فرار التبرؤ. ﴿لِكل آمرِىء مِنهم يومئذٍ شأن يغنِيهِ﴾. في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُحْشَر الناس يوم القيامة حُفاة عُراة غُرْلاً» قلت، يا رسول الله! الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: «يا عائشة، الأمر أشدّ من أن ينظر بعضهم إلى بعض». خرّجه التِّرمذي عن آبن عباس: أن النبي ﷺ قال: «يُحشرون حفاة عُراة غُرْلاً» فقالت آمرأة: أينظر بعضنا، أو يرى بعضنا عورة بعض؟ قال: «يا فلانة» «لكل آمرِىء مِنهم يومئذٍ شأن يغنِيهِ. قال: حديث حسن صحيح. وقراءة العامة بالغين المعجمة؛ أي حالٌ يشغَله عن الأقرباء. وقرأ آبن مُحيصن وحُميد «يَعْنِيهِ» بفتح الياء، وعين غير معجمة؛ أي يعنيه أمره. وقال القُتَبي: يعنيه: يصرفه ويصُدّه عن قرابته؛ ومنه يقال: آعْنِ عني وجهك: أي آصرفه وآعنِ عن السفيه؛ قال خُفاف:

سَيَعْنِيك حرب بنِي مالِكٍ عن الفُحْشِ والجهلِ في الْمَحفِلِ

قوله تعالى: ﴿وجوه يومئذٍ مُسْفِرة﴾: أي مُشرقة مضيئة، قد علمت مالها من الفوز والنعيم، وهي وجوه المؤمنين. ﴿ضاحِكة﴾ أي مسرورة فَرِحة. ﴿مُسْتبشِرة﴾: أي بما

آتاها الله من الكرامة. وقال عطاء الخُراساني: «مُسْفِرة» من طول ما ٱغْبرت في سبيل الله جلّ ثناؤه. ذكره أبو نَعِيم. الضحاك: من آثار الوضوء. ٱبن عباس: من قيام الليل؛ لما رُوي في الحديث: «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار» يقال: أسفر الصبح إذا أضاء. ﴿ووجوهٌ يومَئِذٍ عليها غَبَرة﴾ أي غبار ودخان ﴿تَرْهَقُها﴾ أي تغشاها ﴿قَتَرَةٌ﴾ أي كسوف وسواد. كذا قال ٱبن عباس. وعنه أيضاً: ذِلة وشِدّة. والقتَر في كلام العرب: الغبار، جمع القَتَرة، عن أبي عُبيد؛ وأنشد الفرزدق:

مُتَــوَّجٌ بِــرِداء الملــكِ يَتْبعــه　　　مَوجٌ ترى فوقه الراياتِ والقَتَرا

وفي الخبر: إن البهائم إذا صارت تراباً يوم القيامة حُوِّل ذلك التراب في وجوه الكفار. وقال زيد بن أسلم: القَتَرة: ما ٱرتفعت إلى السماء، والغَبَرة: ما ٱنحطت إلى الأرض، والغبار والغَبَرة: واحد. ﴿أولئِك هم الكَفَرة﴾ جمع كافر ﴿الفَجَرة﴾ جمع فاجر، وهو الكاذب المفتري على الله تعالى. وقيل: الفاسق؛ [يقال]: فجر فجوراً: أي فسق، وفجر: أي كذب. وأصله: الميل، والفاجر: المائل. وقد مضى بيانه والكلام فيه. والحمد لله وحده.